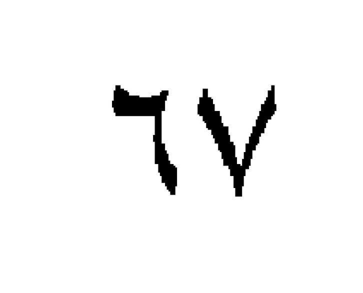
د. رفعت السعيد

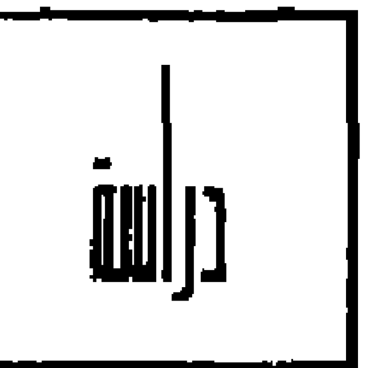
تأملاتٌ.. في الناصرية

تأملاتٌ ..
في الناصرية

منشورات







اسم المؤلف : د . رفعت السعيد
عنوان الكتاب : تأملات... في الناصرية
الناشر : المدى
الطبعة الثانية : ١٩٧٩
الطبعة الثالثة : ٢٠٠٠

Author : Dr. Rif'at As-Sa'id
Title: Contemplations on Nasserism
Al- Mada : Publishing Company
Second Edition 1979
Third Edition 2000

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy · البريد الالكتروني

د. رفعت السعيد

تأملات..
في الناصرية



إلى هؤلاء الذين لا يفزعهم

ضوء الحقيقة حين يسطع

تـواصل ...

يحمل هذا الكتاب ما يكفي من مقدمات .

لكننا بحاجة إلى تواصل كي نحاول معاً تفكيك هذا اللغز الذي لم يزل يطاردنا... النظر الموضوعي للآخر . فنحن في خضمنا العربي المبتسر لم نزل نعاني انعداماً من القدرة على النظرة الشاملة... التي يمكنها أن تجاور بين السلبي والايجابي في سبيكة واحدة . الكثيرون عندنا يتقنون فقط النظر بعين واحدة ، ولا يرون في الآخر سوى شق واحد من صفاته... خيراً صافياً أو شراً متكاملاً...

والرؤية للحاكم تزيد الأمر تعقيداً إذ تضيف إليه اللغز الأبدي الآخر عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

... وهذه الكتابة من أولها إلى آخرها محاولة لاقتحام لغز النظر الموضوعي لحاكم أغضب البعض ببعض فعله واكتسب محبة البعض الآخر بكثير مما فعل...

... والأمر بسيط... حلّ كافة رموزه شاعر العربية العظيم الجواهري عندما رثاه...

أكبرت يومَكَ أن يكون رثاءَ
فالخالدون عهدتُهم أحياءَ
لا يعصم المجد الرجال وإنما
كان العظيمُ المجدَ والأخطاءَ

يا للبساطة الرائعة في تعبير هو تجسيد للسهل الممتنع . لكن البعض من الناصريين يرون في عبد الناصر قديساً لا يأتيه الباطل من أي مسلك ، وأي نقد أو عتاب أو همس أو لمس لبعض مما ارتكب من أخطاء يكون بالضرورة ثورة مضادة ، وعدواناً على التراث الناصري... وتحدياً للمجد المناضل ضد الاستعمار والصهيونية... وعداءً وعدواناً لا بد أن يردع بالرد القاصم بالهجوم المتجهم والمتهجم .

والبعض من خصوم الناصرية لا يرون فيه إلا شريراً نيروني المزاج ، وديكتاتوراً دمّر الوطن...

البعض ينظر بعين واحدة لا ترى سوى المجد لعبد الناصر ضد الاستعمار والصهيونية ، ومع ذلك المجد ترصيعات بديعة من لؤلؤ ثمين... التصنيع ، الاصلاح الزراعي ، السد العالي ، مجانية التعليم ، ٥٠٪عمال وفلاحين... الخ .

والبعض الآخر ينظر فقط بالعين الأخرى فلا يرى سوى النكسة الدامية ، والسجون والتعذيب والإرهاب لكل الخصوم...

ألم نقل :

« كان العظيم المجد والأخطاء »

ولعلي لست بحاجة إلى القول بأن كلا « البعضين » مخطئ . وأن تقييم

عبد الناصر لا يكون ولن يكون سوى بالنظر بعينين [هل هي مصادفة أن خلقنا الله بعينين وليس بعين واحدة ؟] فهل هذا صعب ؟

الكلمات سهلة ، لكننا عند التطبيق نكتشف أن النظرة الموضوعية تبدو مستحيلة عند البعض .

* * *

تواصل ثان

ذات يوم سألني صحفي : متى يخون المثقف فكرته ؟ أجبت دون تردد : عندما يقدسها .

فهو إذ يقدسها يجعلها فكرة جليدية تبدو صماء ومتماسكة وما ان تسطع شمس الواقع حتى تذوب متلاشية بلا أثر سوى بلل معيب .

والبعض من الأخوة الناصريين يتصور أن تقديسه للناصرية تعبير عن إخلاصه لها وهذا غير صحيح . فالفكرة كائن حي... يتنفس الواقع ويمتزج به وتتولد عبر هذه المزاوجة الضرورية صور جديدة من الفكرة الأصلية... لعلها أكثر بهاءً ، بل هي بالقطع أجمل وأروع من الأصل ، فهي تتعطر دوماً ، ترتوي ، تتألق بعطر الامتزاج بالجديد .

والبعض منهم يتجنب مناوشتنا له بأن ينفض عن نفسه غبار النقاش باعتراف مبتسر ببعض الأخطاء أو بتأكيد مختصر بضرورة التجدد ، ثم ينسى اعترافه وتأكيده متواصلاً في تبتل مع تراتيله القديمة . والبعض يحاول أن يخادع الواقع فيقدم لنا ذات الشراب القديم في أوعية جديدة... و... كانوا أنفسهم يظلمون .

وعندما تجاسرت وحاولت أن أقدم بعضاً من الرؤى الانتقادية للماركسية تهلل البعض من الأخوة الناصريين فرحاً ، واهتزوا طرباً فها هي الفكرة «الأخرى» تهان أو تدان ، ناسين أن محاولتي - إن كانت صائبة - فهي ليست سوى إطار لبث الحياة الجديدة في الفكرة... ودفعها إلى مزيد من الوجود المتألق القادر على التعايش مع الجديد ، والإفلات من وهدة الانقراض .

لكنهم هم ذاتهم يتأذون جداً من أي نقد ينتقد لفتة أو فلتة من عبد الناصر أو الناصرية .

إنهم يقدسون الفكرة... فيتبدون بها وتتبدى بهم في شكل يستعلي على الجميع استعلاءً ضاراً بها... يضرها مرتين : مرة إذ يجعل منها لوح ثلج خالٍ من النبض الحي ، وكما قلت ما إن تفترش أشعة الواقع مساحة ما يقول... يذوب . ومرة أخرى إذ يتصدى البعض بسذاجة فائقة المقدار ملوحاً في وجوه الجميع شاتماً ، متوتراً ، رافضاً الآخر ، لاعناً... فيضر الفكرة الأصلية ، ويفقدها موضوعيتها ، وقدرتها على اجتذاب الآخر .

والرأي عندي أنه لا حياة لفكرة إلا بالنظر الانتقادي المستمر لها .

وأؤكد مرة أخرى «النظر الانتقادي المستمر» . فالبعض يراود نفسه ، لا بأس بقليل من النظر الانتقادي لنسكت الأفواه الناقدة ، ناسياً أن الانتقاد العلمي يقوم على المزاوجة بين الفكرة والواقع ، بل يفرض علينا فرضاً أن نتواكب مع هذا الواقع الواقعي بفكرتنا كي نتنفس بها هذا الواقع الجديد...

وهذا ضروري ضرورة حتمية كي تعيش الفكرة ولا تصبح عبئاً على كاهل أصحابها ؛ إذ يحاولون أن يبرروا بها ما لا يمكن تبريره ، أو يتعاملوا

بها مع واقع قد تغير ، فيبدون كراكب يفوته القطار دوماً . أو كمريض يصمم على تعاطي دواء انتهت مدة صلاحيته .

وما نقوله ليس به جديد .

وهو ليس فقط متعلق بالنظر الجدلي للأمر بل هو أقدم من ذلك بكثير .

يقول الإمام أحمد بن حنبل : لا تقلدني ، ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الثوري ، وتعلم كما تعلمنا .

ويقول الإمام الجوزي : في التقليد إبطال منفعة العقل لأنه إنما خُلق للتدبر والتأمل ، وقبيح بمن أُعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلام .

* * *

تواصل ثالث

أقول... هذا الأمر ليس بجديد . وحري بنا أن نتلقنه عبر الفكر الحديث أو المستحدث والفكر القديم ، فمن هذا المزيج يتركز في وجداننا إيمان أعمق ، وقدرة أكبر على التعامل الانتقادي مع الأفكار .

عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله في حكمه على من بغى من هذه الأمة «لا يُجهز على جريحها ، ولا يُقتل أسيرها ، ولا يُطلب هاربها» . رواه البزاز والحاكم .

لكن التاريخ القديم شهد الكثيرين من فقهاء السلطان الذين طوعوا كل شيء خدمة لسلطان طاغٍ ، ونقرأ :

«يعطى السلطان كل السلطة دون مراجعة ، فالله سبحانه وتعالى جَبَل

الخلق على عدم الإنصاف ، فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر ولم يستقر لهم معاش ، ومن الحكم التي وردت في إقامة السلطان أنه بذاته من حجج الله على وجوده سبحانه ، ومن علاماته على توحيده ، فالعالم بأسره في سلطان الله ، كالبلد الواحد في يد سلطان الأرض . كذلك فإن السلطان إذا كان قاهراً لرعيته ، كانت المنفعة به عامة وكانت الدماء في أهبها محقونة ، والحُرم في خدورهن مصونة ، والأسواق عامرة ، والأموال محروسة » .

[أبو بكر الطرطوشي ـ كتاب سراج الملوك . الباب السابع ـ ص ١٥٦] .

وهناك أيضاً شعراء السلطان...

أرأيت ابن هانئ الأندلسي إذ وقف لينثر شعره تحت أقدام المعز لدين الله الفاطمي وينثر معه كرامته... بل وحتى دينه... فيقول :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار
هذا الذي تُرجى شفاعته غداً
لا بل وتُخمد إن تراه النار
شرفت بك الآفاق وانقسمت
بك الأرزاق والآجال والأعمار

لكن الأمر لم يكن كله كذلك... هناك من واجهوا السلطان محتمين بالحق والعدل والكرامة...

«دخل جمال الدين الأفغاني على السلطان العثماني ، حامي حمى المسلمين ، سلطان السلاطين وبرهان الخواقين ، متوج الملوك وظل الله في

الأرضين ، دخل وأصابعه تعبث بمسبحته بما عُد خروجاً على اللياقة الواجبة ، ومال الصدر الأعظم يهمس في أُذن الشيخ بأن يخبئ مسبحته في حضرة السلطان فأجاب الأفغاني بصوت مرتفع :

يا حضرة الباشا إذا كان حضرة السلطان يعبث بحياة ثلاثين مليوناً من بني آدم ، أكثير على الأفغاني أن يعبث بثلاثين حبة من الكهرمان ؟ » .

... ودفع الأفغاني ثمناً باهظاً ـ وقليلون جداً من يتحملون ثمن الكرامة في مواجهة ظالم .

لكن الحكام يعبثون ـ أحياناً ـ بأرواح البشر لمجرد التلهي...

«دخلت امرأة على السلطان صارخة وقد كشفت رأسها مستجيرة به ، فقد اشترت بآخر ما تمتلك لبناً تطعم به أطفالها فاختطفه مملوك مغتصباً إياه وشربه . وأمر السلطان الاستادار بأن يحضر المملوك فأتى ومثل أمامه وقبل الأرض بين قدميه... وأنكر قول المرأة ، وأقسم أغلظ الأيمان» .

... كيف أقام السلطان العدل ؟ لعله كان ضيق الصدر فأراد أن يفرج عن نفسه ببعض من إراقة دماء... ولعل المملوك كان تابعاً لأحد خصومه من الأمراء . ولعله أراد أن يتلهى...

أمر بالمملوك أن يوسط [والتوسيط هو أن يضرب الإنسان بالسيف في وسطه حتى يقطع نصفين] فإن خرج اللبن من مصرانه يكون قد نال جزاءه ، فإن لم تظهر آثار اللبن تكون المرأة كاذبة فتوسط عقاباً لها .

[محمد بن إياس الحنفي ـ بدائع الزهور في عجائب الدهور ـ ج١ ـ القسم الثاني ـ ص ٤١]

... إنه عدل سلطان جائر ، أرواح الناس لديه مجرد مادة للتلهي .

* * *

وتواصل رابع

عندما أتى «الاتحاديون» ليطيحوا بالسلطان الظالم الفاسد عبد الحميد ، وينفونه... يتهلل شاعر عاشق للحرية ـ ولي الدين يكن ـ فرحاً ويصيح :

عـــــزاءً أيهـــــا النافي الرعـــــايا
ولا تجـــزع فـــخـــالقـــهم نفـــاكـــا
فـــمـــا أنا شـــامت بك حـــين تبكي
كـــمن شـــمـــتـــوا ولكن ذا بذاكـــا .

لكن الاتحاديين الذين تحدثوا طويلاً عن الحرية والديقراطية وظلم السلطان ، ما لبثوا ـ وبدعوى الدفاع عن الثورة ـ أن تحولوا إلى طغاة فصرخ ولي الدين في وجوههم :

أفـــلا يزال الســـوط حـــاكـــمكم
وأبو الســـيـــاط بيلدزٍ ذهبـــا
أفـــلا يزال الدهر يعـــجـــبكم
ضـــرب ومـــضـــروب ومن ضـــربا
ونقـــول أحـــرار فنمـــدحكم
لا حـــرَّ فـــيكم... كلنا كـــذبا .

[ولي الدين يكن ـ التجاريب ـ الطبعة الأولى ١٩١٣ ـ ص ٤١]

... ويتعرض ولي الدين يكن للظلم لأنه حارب الظلم . يفقد حريته لأنه دافع عن الحرية فيكتب متألماً :

«مساكين أنصار الحرية ، يريدون أن يخلّصوا العباد من الظلم فيقعون هم تحت الظلم»

[ولي الدين يكن ـ المعلوم والمجهول ـ جـ١ ـ (١٩٠٩) ـ ص ٢٨]

نتأمل قصة ولي الدين يكن في حربه ضد السلطان الظالم ، ثم امتداحه لضباط الاتحاد والترقي ، ثم هجومه عليهم... كل ذلك مدافعاً عن الحرية... فيفقد هو حريته .

ونطابق بين ما كان في تركيا... وما كان هنا .

* * *

تواصل أخير

كتب هذا الكتاب عام ١٩٧٣ . والآن أعدت التأمل فيه . فما ندمت على كلمة وردت ، بل لعلي ـ ومع بعض من نضج عبر زمن طويل ـ أحسست أن بالامكان بل من الضروري أن أتزود بمزيد من الإلحاح على التصدي لكل امتهان للديمقراطية ليس فقط لأننا نجد في الديمقراطية قيمة إنسانية تستحقها مصر... تستحقها الآن كما كانت تستحقها في زمن عبد الناصر [فاستحقاقها فرض عين] وإنما أيضاً لأنها طوق نجاة . لكنني ـ مع هذا الإحساس وبرغمه ـ لم أضف حرفاً .

وأكاد أقول بل وأصرخ : لولا عثرات الديمقراطية ، وإنكار الآخر ، ورفض النقد ، وتجريم الانتقاد... لما تهاوى كل شيء بعد وفاة الزعيم... ولما أصبحنا فيما نحن فيه...

لست ناقماً على أحد ، وليس بي غضب شخصي ، فما كان كان ، ولست حتى كولي الدين يكن فأقول :

فـمـا أنا شـامت بك حـين تبكي
كـمن شـمـتـوا ولكن ذا بذاكـا .

ولكنني أعتقد بإخلاص أننا شركاء في الهم ، وفي الخندق وفي المصير وأن ما أردت قوله ـ إن جاز لي أن أقول ـ إنما يقال في سبيل تحقيق الحلم المشترك لوطن حر ومتحرر ، ديمقراطي الرؤى ، تقدمي وقادر على التطلع للمستقبل . يستخدم العقل استخداماً حراً لا يقيده سوى العقل ذاته...

فهل هذا كثير علينا... ؟

د. رفعت السعيد

القاهرة : ١٣ نوفمبر ١٩٩٩

سعادة همت باشا

كانت لسعة شمس أغسطس أملاً رطباً ، والحصى الصغير المدبب كان ليناً تحت الأقدام العارية ، هكذا كان الأمر حقيقة دون أدنى مبالغة ، ربما لأن الأقدام قد جفت وتمرست واعتادت فهزأت بمثل هذه التوافه ، وربما لأن زنازين السجن كانت أصعب وأشد هولاً من أي شيء آخر ، فصار أي شيء آخر نعيماً يمكن الاستمتاع به .

وهكذا كان «طابور» السجناء تحت حصار الحراس والمدافع الرشاشة والعصي والشتائم وأخيراً الشمس والحصى الرفيع تحت الأقدام... كان ذلك الطابور أملاً ينتظره السجناء... ويعدون الثواني ترقباً له .

ففي «الطابور» كان السجين يرى اخوته ، الوجوه التي عاش معها كفاحاً طويلاً ممتداً... «الرفاق» ، وبرغم الحراسة الصارمة كانت البسمات يجري تبادلها وأحياناً وريقات صغيرة تحكي أخباراً عن خارج السجن أو تناقش رأياً اختلف عليه الرفاق...

غير أن الأمر لم يبدأ هكذا... كان السجن في بداية الأمر «إنسانياً» إلى حد ما ، هذا إذا جاز لنا أن نعتبر لأي سجن صفة الإنسانية ، وذات

صباح اهتزت أرجاء عنبر الشيوعيين بصرخة حارس يحاول أن يبدو مقداماً أمام قائده... «انتباه» ، وتعالى صليل المفاتيح ، ولمعت أمام أعين السجناء الذين جُمعوا على عجل «أكوام» من الشارات النحاسية على أكتاف ضباط كثيرين ، وفي مقدمتهم... ماذا أقول ؟ لا أريد أن أسميه رجلاً... وهو لا يستحق كلمة إنسان... «شيء »... مجرد شيء قصير يزهو بشريط أحمر فوق الكاب يدل على أنه برتبة «لواء» وكومة من الشارات والنياشين والأنواط ونظارة طبية خلفها عينان ضيقتان تحاولان عبثاً التظاهر بالدهاء لكن التفاهة كانت تطغى على كل حركة من حركاته المزهوة .

وصاح المأمور «سعادة همت باشا عاوز يكلمكم» . ورنّت في آذاننا «سعادة... باشا» وكنا للعلم في فبراير ١٩٥٩ . وبدأ همت «باشا» حديثه ممتدحاً أخلاقنا ، وسعة أفقنا ، وكوننا مثقفين مدركين لطبائع الأمور وتطوراتها ، وأننا نتحملها كرجال...

وبدأت التعليمات تدوي... الملابس الداخلية ممنوعة ، الأحذية ممنوعة ، الجرائد ممنوعة ، الرسائل ممنوعة ، الكتب ممنوعة ، الزيارات ممنوعة ، العلاج بالمستشفيات الخارجية ممنوع ، الإضاءة مساءً ممنوعة ، فتح الزنازين ممنوع... فقط ربع ساعة في الصباح ، وربع ساعة في المساء ، وطابور نصف ساعة ، الحبس انفرادي ، الاختلاط ممنوع... ممنوع... ممنوع . عشرات من هذا اللفظ دوت في آذاننا دون أن نهتم بها ، فقد أدركنا منذ اللحظة الأولى أنها بداية يعرفها جيداً كل من ذاق عذاب زنازين الناصرية في أية مرحلة من مراحلها...

«... بس يا أفندم» نطق بها أحدنا محاولاً أن يبدأ نقاشاً ، لكن همت صاح «مفيش بس» والتفت إلى أتباعه آمراً... «نفِّذ» .

ودون أن نحاول المقاومة تحركت العصي المستعدة دوماً لتنفيذ الأوامر... وتلاقت النظرات وتفاهمت واتفقت « لا مجال للمقاومة » .

خمس دقائق مضت ، وأصبح الجميع عراة وهمت سعيد ليس تشفياً ولكن ربما لسبب آخر تهامس به ضباطه أنفسهم... وكومة الملابس تعطي فكرة كافية عن التكوين الاجتماعي للرفاق ، جلاليب فلاحين وعمامات مشايخ... سراويل اسكندرانية ، أو فرولات عمال تمتزج معها ملابس فاخرة من آخر صيحة ، لكن عينا الشاويش أحمد الساذجة تجاوزت ذلك كله والتقطت أصابعه الصلبة «سليب» وتساءل الرجل في دهشة «إيه ده» ، لكن عينا القائد الصارم التي كانت تحاول أن تستمتع قدر الإمكان برجولة الأجساد العارية نهرته...

ثم انهالت ماكينات الحلاقة لتزيل آخر المعالم المميزة للأفراد وارتدى الجميع ملابس من قماش يشبه الخيش وارتفع صليل المفاتيح من جديد ليودع كل منا في زنزانة...

وارتفع صوت السجان «انتباه» ليعلن انتهاء المعركة ورحيل الباشا . وهكذا ابتدأ طوفان التعذيب . وكانت قصة سجون الناصرية الدامية التي لم يكتبها أحد والتي ـ ربما ـ لن يكتبها أحد ، ذلك أن الذين عاشوا تجربتها يدركون أن مجرد سرد ما احتوته هذه الفترة من بشاعة وجرائم ولا إنسانية تكفي لتلطيخ سمعة أي «نظام» وطمس كل معالمه الإيجابية ، ولا يزال لدى هؤلاء الرجال الذين عاشوا سنوات المحنة قدر من «الموضوعية» يحمي «الناصرية» من سرد ما ارتكبته ضدهم .

وتمضي الأيام... دقيقة دقيقة ، في الزنازين الانفرادية في سجن القناطر ، والدقائق طويلة ممطوطة... مخطئ من يكتفي باستخدام الزمان

المجرد وحده للقياس ، فالدقيقة في هذه الزنازين تمتد طويلة بغير نهاية ، إنها تختلف عن أية دقيقة أخرى في أي مكان آخر ، انها أكثر طولاً بما لا يمكن لعقل أن يتصور... الزمن هناك وحش هائل يتحرك ببطء شديد ، وهو في حركته يطوي أمامه كل شيء... الأحلام... الآمال... الذكريات القديمة ، حتى تلك الأشياء البسيطة... صوت قطة ، رنين تليفون ، لحن موسيقي ولو نشاز ، صراخ طفل ، صورة الأهل التي تحاول الذاكرة عبثاً أن تتلمسها فتفشل... أي شيء .! لا شيء سوى ذلك الوحش الهائل الذي يمضي ببطء قاتل ليجرد الإنسان من إنسانيته وليخلق مناخاً عقلياً ووجدانياً لا يمكن أن يتصوره أو يدركه إلا كل من عانى منه .

والسيد المهاب في العنبر هو الشاويش أحمد ، شخصية تغري بالتأمل . شديد التعالي ، يضربك في تعالٍ ويطلب معونتك في تعالٍ أيضاً ، ذلك أن التعالي غريزة غرست في أعماقه منذ أن أصبح سجّاناً قادراً على التحكم في مصير البشر السجناء ، وهو شديد الفقر ، دائماً في حاجة إلى توصية من أحدنا إلى طبيب صديق ليعالج زوجته مجاناً ، أو حتى إلى مساعدة مالية ندبرها له في الخارج ، لكن الغريب أنه كان يتلقى هذه المساعدات في تعالٍ أيضاً...

وهو دائم التفاخر بأنه تربية « كوكس باشا » ، المدير الإنجليزي لمصلحة السجون إبان الاحتلال... وذات يوم وبعد أن ضرب أحدنا بإمعان ، مسدداً لكماته بإحكام يحسد عليه تنفيذاً لأوامر من ضابطه ، نفض يديه ثم جلس يتسامر معنا وكأنه لم يفعل شيئاً...

وتجرأت وسألته « يا عم أحمد إيه رأيك في مصر ؟ »

وارتسمت علامات الدهشة على الوجه المتعجرف وقال « أم الدنيا » .

ـ وناسها ؟

ـ أجدع ناس .

ـ والحكومة ؟

ـ الحكومة طول عمرها بنت كلب .

ـ أي حكومة ؟

ـ أي حكومة .

ـ وعبد الناصر ؟

ـ راجل جدع .

ـ بتحبه ؟

ـ (ثائراً) يعني إيه بحبه هو مراتي ؟

ـ أقصد هل توافق على سياسته ؟

ـ أما مبفهمش في السياسة .

ـ طيب هو جدع ليه ؟

ـ غريبة... من غير ليه ، هو جدع وخلاص .

ـ طيب ليه بتضربنا ؟

ـ شغلتي... أكل عيشي...

ـ طيب إيه رأيك فينا ؟

ـ أولاد حلال...

ـ وبتضربنا ليه ؟

ـ الحكومة عايزة كده .

ـ لكن إنت قلت أن الحكومة بنت كلب ؟

ـ وماله... لكن أنا بشتغل عندها...

ـ لكن هل نستحق الضرب ؟

ـ (فقال بإخلاص شديد) نعم...

ـ ليه يا عم أحمد إحنا بندافع عن الشعب ؟

ـ كلهم بيقولوا كده ، هو الكلام بفلوس ؟ الحكومة نفسها بتقول كده ، انتوا بتتكلموا عن الاشتراكية وهي بتقول اشتراكية واحنا لسه فقراء... هو الكلام بفلوس...

ثم التفت إليّ وسألني : إنت بتشتغل إيه ؟

ـ محامٍ .

ـ يعني أفندي... بيه زي كل البهوات وتقولّي... شعب واشتراكية!
وتذكرت الأصابع المغلفة بالدهشة وهي تمسك «بالسليب» وتسأل إيه ده ؟
وأحسست بالهوة بيني وبينه...

... وذات يوم كان الطابور يدور مسرعاً مستمتعاً بالشمس المحرقة ، والحصى الرفيع المدبب يُطحن تحت وطأة الأقدام الجافة وصيحات السجان تعلو رتيبة «بلاش كلام» «بص قدام» .

وفجأة... «انتباه» عالية ، وجاء سعادة الباشا من جديد واستمتع طويلاً بمنظرنا ، ثم استدعاني ، لماذا أنا بالذات ؟ لا أدري ، هي المصادفة البحتة بغير شك .

وسألني : اسمك ؟ مهنتك ؟ ثم فجأة : هل أنت شيوعي ؟ نعم... إذن أنت عميل ؟... لا . لماذا أنت ضد الثورة . لست ضدها نحن أول من أيدها وقد شاركنا في صنعها ، ولا زلنا نؤيدها حتى وأنت تعذبنا...

ولمعت عيناه في سذاجة وقال : إذن أنت تحب عبد الناصر ؟ قلت : أنا أؤيده ، وأؤيد كثيراً من إجراءاته ، ولي انتقادات على خطوات أخرى... قال : إذن اهتف «عاش عبد الناصر»...

«عاش عبد الناصر!» وتدافعت أفكار كثيرة في ذهني ، شريط طويل من العلاقات مع الثورة تأييد... هتافات... مظاهرات... عاش عبد الناصر... لقد قلناها عشرات بل مئات المرات ، ولكن ليس هنا... هناك على رأس المظاهرات الصاخبة... أيام باندونج... أيام صفقة السلاح... تأميم قناة السويس...

«عاش عبد الناصر» نعم ، لكن ليس هنا ، ليس بأمر رجل أنا أقرب منه إلى الناصرية بعشرات المرات ، هنا يفقد الموقف السياسي معناه ويتحول الهتاف إلى مذلة .

وتماماً كالأحلام انتهى الشريط الطويل في لمحة ، وقلت له أنا أؤيد عبد الناصر . لقد دافعت عنه ودافعت عن نظامه ، كل الناس تعرف موقفنا ، لكن الهتاف الآن وبناء على أمر من سلطة السجن ينقلني من موقف «السياسي» إلى موقف «السجين» واستمرت الابتسامة الباهتة تحلق فوق وجهه «طيب اهتف يسقط خروتشوف» . فقلت لماذا ؟

قال : لأن خروتشوف يهاجم عبد الناصر وأنت تقول أنك تؤيد عبد الناصر .

... ومن جديد توالى شريط طويل... طويل ثم اختفى في لمح البصر ،

وأدركت أن همت لن يفهمني على الإطلاق ، لن يفهم تعقيدات الموقف ، ومهما حاولت ، ومهما قلت فالنتيجة معروفة ، إن همت لا يشتبك مع أي سجين بغير نتائج عملية هي الضرب . وانطلقت من فمي «لا» عالية ، خرجت قاطعة كسكين حادة ، كانت يجب أن تُقال لكن لماذا خرجت بمثل هذه الحدة ؟ لا أدري ؟ وبعدها لم أدر شيئاً فأتباع همت يلبون رغباته حتى قبل أن ينطق بها وانهالت عشرات العصي واللكمات والرفسات ، وتحمس البعض فنزع أحزمته الجلدية وانهال بها . والذي خاض هذه التجربة يعرف أنها سهلة ، الضربات الأولى موجعة ثم بعد ذلك لا تشعر بشيء ، ويمكنك أن تتلقى من الضربات ما يكفي لإنهاك ضاربيك ، والجسد الإنساني ذو قدرة غريبة على الاحتمال .

لكن الآلام تأتي بعد ذلك .

وفي الزنزانة المغلقة جلست طوال الليل ، فلم أكن لأستطيع النوم ، واستعدت في ذاكرتي شريط الحوار ، وبدا الأمر غريباً ومحيراً . ومع لسعات الألم الممض تجسّدت الغرابة في تساؤلات عنيفة :

لماذا لم يفهم هذا الرجل موقفي... ؟

الضرب ليس مهماً ، لقد اعتدنا عليه ، لكن لماذا بدت كلماتي غير مقنعة... ؟

لماذا بدت الكلمات وكأنها متناقضة ؟

لماذا... لماذا كل هذا التعقيد ؟

ويومها رسخ في خاطري دافع ملح ، أن أجهد فكري تأملاً في ظاهرة الناصرية... أن أحاول على الأقل فهمها... حتى أستطيع أن أتحدث عنها دون تعقيد ...

وفي جلستي التي يحف بها الألم ، بدأت الأفكار تتوالى ومضى وقت طويل ، ربما كان بحساب الزنزانة مجرد دقائق ممطوطة .

مقدمة ٢

سيادة الفريق... قاضياً

كانت القاعة ممتلئة بالناس ، أناس كثيرون ، الأكثرية مخبرون وهناك أيضاً عائلاتنا وفضوليون ، وصحفيون ، ورفاق لنا أتوا ليمنحونا بعض الشجاعة أو ليستمدوا منا بعض الإلهام . ومحامٍ أوربي حضر من فرنسا ليراقب إجراءات المحاكمة ، ومحامون كثيرون احترفوا عملية الدفاع السياسي كمهنة مربحة ، وإن كانوا يعرفون النتيجة مقدماً ، فلا فائدة من أية دراسة ، فلا القضاة يهتمون بالقانون ، لأنهم مجرد منتقمين سياسيين ، ولا المتهمون يهتمون أيضاً بالقانون فهم مجرد «مدافعين سياسيين»...

وصرخ الحاجب ـ رجل مدني مسكين لم يعتد على منظر القضاة العسكريين ـ صرخ من أعماقه «محكمة» ، ووقف الجميع من هول الصرخة وبحكم العادة ، ودخل القضاة : الفريق هلال قائد سلاح المدفعية واثنان من الضباط ومدّعٍ عسكري .

وفجع القاضي ـ رغم عسكريته ـ من هول المفاجأة ، كان يتوقع أي شيء إلا أن يفتتح جلسات محكمته بهذا المشهد الدامي... المتهمون جميعاً مضروبون ضرباً مبرحاً بدت آثاره جروحاً ودماء وجبائر وأربطة تلفهم جميعاً تقريباً ، واحمرّ وجه الرجل .

وارتفعت يد ملفوفة بجبيرتين من الخشب وكومة من القطن الطبي والشاش ، ودون أن يأذن القاضي ، ودون أن ينتهي من نطق العبارة التقليدية «فُتحت الجلسة» انطلق صاحب الذراع المكسورة ليتحدث عن عدوان وحشي وقع على المتهمين في السجن قبل حضورهم للمحاكمة ، واحمر الوجه الأبيض المستدير ذو النكهة الارستقراطية... ربما من الخجل... وربما من الارتباك ، ولم ينطق بكلمة .

كان عدوان مأمور السجن علينا محيراً ، لا أحد يعرف لماذا ؟ ربما لأنه أحس أن الحكومة تكرهنا فأراد أن يتقرّب منها فكانت الكارثة أن أرسل إلى جلسة المحاكمة العلنية (والجلسة الأولى هي وحدها الجلسة العلنية دائماً) مجموعة من المصابين لا مكان لهم إلا المستشفى ، وكانت فضيحة أمام الصحفيين والعائلات والمحامي الفرنسي . فقط لو انتظر هذا المأمور الغبي حتى تبدأ الجلسات السرية ، لما أحس أحد ولما غضب منه رؤساؤه... وظل سيادة الفريق ـ قائد سلاح المدفعية ـ مرتبكاً أمام الطلقات التي دوى بها صوت صاحب الذراع المكسورة... وساد الارتباك... ومال المدعي العسكري (المدرّب) على عضو اليمين... ومال عضو اليمين على سيادة الفريق هامساً... وفتح الله على الفريق بعبارة «رُفعت الجلسة» نطقها متعثرة ثم انطلق هو أيضاً متعثراً وترك القاعة وخلفه بقية الضباط...

... وعاد من جديد ليعلن سرية المحاكمة وأخليت القاعة... وطُرد المحامي الفرنسي بقرار من المحكمة... وبدأت المهزلة .

والسيد الفريق لم يكن يعرف من القانون شيئاً ، وهو حتى لم يجهد نفسه ليعرف أوليات القواعد القانونية التي يعرفها رجل الشارع المستنير...

وخفّ واحد من المحامين التقليديين ليحاور المحكمة حول «تكييف»

التهمة ، وأعجب الفريق الصديق المقرب من المشير من كلمة «تكييف» لعلها ذكرته بجلسات أكثر متعة... وضج ضاحكاً ، ومال المدعي العسكري (المدرَّب) على عضو اليمين ، ومال عضو اليمين على الفريق هامساً «عيب...» وعادت التكشيرة تكسو وجهاً احمر خجلاً هذه المرة...

ولكن المحامي يستمر في المحاورة القانونية حول نقطة بسيطة للغاية ما هو تكييف التهمة ؟ ولماذا هي جناية وليست جنحة ؟وتفلسف الفريق... «أية جناية وجنحة هي جريمة وخلاص» . والتقط المحامي الخيط ، فقد أدرك أن الفريق يجهل أبسط أوليات القانون واستمر في المحاورة «جناية أم جنحة ؟» وثار الفريق «معرفش اسأل المدعي» . وجاء الدور على المحامين... والمتهمين وحتى الحراس لكي يضحكوا...

وهكذا مضت المحاكمة في مناخ امتزجت فيه المأساة بالكوميديا... حتى كانت الضربة القاضية عندما وقف محام شاب ليقدم دفعاً قانونياً خطيراً... «إن قرار تشكيل المحكمة باطل من الناحية الدستورية» فقد أصدره عبد الناصر في يوم لم يكن يمتلك فيه الحق دستورياً في إصداره نظراً لانتهاء أمد «قانون الطوارئ» الذي يتيح له تشكيل محاكم أمن دولة خاصة... صحيح أنهم قد تداركوا الأمر وصدر قرار جمهوري بمد أمد قانون الطوارئ ، غير أن هذا القرار قد صدر في يومٍ تالٍ لقرار تشكيل المحكمة...

وكانت ضربة ذكية ، تلك المقارنة بين التواريخ ، وانهمرت العبارات من فم المحامي الشاب المنتصر... «قرار تشكيل المحكمة صدر من غير ذي صفة»... باطل... ما بني على الباطل فهو باطل... التصحيح اللاحق غير جائز قانونياً... أدفع ببطلان تشكيل المحكمة وأطالبها بالتنحي...

ولم يكن الفريق يفهم خطورة الموقف في أول الأمر ، فقد اعتاد أن

يسرح بخياله عندما يبدأ المحامون بالكلام ، ولعله سرح طويلاً لكنه أفاق على الذهول الذي سيطر على المدعي العسكري وعلى المحامين الآخرين .

وهمس المدعي العسكري في أذن عضو اليمين ، ومال عضو اليمين على الفريق واحمر الوجه الأبيض المستدير واعتدل في جلسته ثم سأل في سذاجة يغلفها الكبرياء «يعني إيه يا استاذ ؟ قصدك إيه ؟ نقوم نروح بيوتنا وبلاش محاكمة ؟»

وحاول المحامي أن يبسط المسائل ، لكن ويل للمحامي عندما يفيق الفريق ، فقد صاح الفريق صيحة قائد في ميدان قتال «مرفوض يا استاذ مرفوض»... وخرج المحامي من قاعة المحكمة إلى المعتقل .

واستمرت المحاكمة ، لكنها كانت قد فقدت مَعناها تماماً ، فلقد شعر الجميع أن الأمر لا يعدو أن يكون تمثيلية ، وتكلم المحامون بلا اكتراث وقطع المتهمون الوقت بالدردشة معاً ، وسرح القاضي بصورة أعمق ، فهو نفسه قد شعر بالمأزق الذي وضعه فيه قادته . إن التمثيلية غير محبوكة الأطراف ، وقد شعر الجميع بذلك ، وهو لم يهتم حتى بالتظاهر بمتابعة ما يقال... حتى وقعت حادثة أخرى .

كان قرار الاتهام الذي أعدته النيابة العسكرية يعتمد على نص المادة (١٩٧ أ) من قانون العقوبات وهي المادة التي أضافها الطاغية اسماعيل صدقي باشا باجراء غير دستوري ، وهي تعاقب كل من يعمل على «الترويج لتغيير مبادئ الدستور الأساسية ، ولتسويد طبقة اجتماعية على غيرها من الطبقات والقضاء على طبقة اجتماعية ، وقلب نظام الدولة السياسي والاجتماعي والاقتصادي» وتعدد هذه المادة الوسائل التي تعتبرها تحقيقاً لما يستوجب العقاب فتورد من بينها «التأميم أو الدعوة له» .

ويشاء حظ سيادة الفريق العاثر أن تكون المحاكمة في قمتها عندما يصدر عبد الناصر قرارات تأميم الصحف وبنك مصر والبنك الأهلي... ويلتقط المحامون الكرة ، فالحكومة تلجأ للتأميم وتصاحبه بحملات صحفية مبررة تمتلئ بالتحريض على طبقات اجتماعية محددة... والهجوم على الرأسمالية والنظام الرأسمالي يشتد ، ومع ذلك فالمطلوب من «الفريق» المسكين أن يستمر في محاكمة المتهمين طبقاً لهذه المادة...

وارتبكت المحاكمة عدة أيام ، وبدا واضحاً أن سيادة الفريق قد فقد السيطرة على الجلسات ، وكان التناقض صارخاً ، كنا جميعاً شركاء في الإحساس به... المتهمون والمحامون والقضاة .

وبدأنا نحن السجناء نشعر بالإشفاق نحو هذا «الفريق» الذي وضع بقرار من قادته في موقف لا يُحسد عليه ، كان لا يدري كيف يتصرف ، وحاول الادعاء أن يتفلسف فزاد الطين بلة... فكان يهاجم المتهمين فإذا به وكأنه يهاجم الحكومة... ويحاول أن يدافع عن الحكومة فإذا بالدفاع وكأنه في صالح المتهمين .

ومع ذلك فقد استمرت المحاكمة... وأفرغ سيادة الفريق كل ما أحس به من ارتباك ومهانة في أحكام شديدة القسوة ، كل ذلك بعد أن قُتل المتهم الأول في القضية شهدي الشافعي في السجن نتيجة لتعذيب وحشي...

لكن أحداث المحاكمة وصورة «الفريق» المتعنت ، المتعالي الخالي الوفاض من أية معرفة... وهذا التناقض المثير بين استمرار المحاكمة ثم الأحكام القاسية وبين الاجراءات الثورية التي اتخذتها حكومة عبد الناصر في ذلك الحين... وذلك التناقض بين محاولة استخدام الشكل القانوني وتحديه بل وامتهانه ، كل ذلك كان مجرد حافز جديد للتأمل في القضية نفسها التي

كانت تزداد تعقيداً كل يوم... ومع كل خطوة... ومع كل إجراء ... والتي كانت تتراكم معها وحولها الإيجابيات والسلبيات معاً... وربما بالسرعة نفسها ...

... التأمل فيما تقودنا إليه الناصرية...

مقدمة ٣

الأفراح على ضفاف النيل

بين موجات العذاب التي تزخر بها السجون ، يصبح الليل مرفأ أميناً ، فالأباطرة يعودون إلى بيوتهم ، ونحن تغلق علينا الأبواب... وتبدأ الأعصاب في الاسترخاء .

وكان اليوم عاصفاً ، واحد من الأباطرة أراد أن يثبت وجوده... ربما ، وربما أراد أن يعبر عن إخلاصه لرؤسائه علّهم يشفقون عليه وينقلونه من هذا المنفى السحيق بالواحات ، وربما شعر بمجرد رغبة في أن يضرب شخصاً ما... أي شخص ، وكلنا قد شعر في لحظة ما بمثل هذه الرغبة ، لكننا جميعاً نكبت هذه الرغبة فيما عدا ضباط السجون فهم يضربون للعقاب ، ويضربون للإهانة ، ويضربون للتسلية ، ويضربون لتمضية الوقت...

المهم نشبت المعركة ، وتفجر الضرب من جديد سلاحاً ضد السجناء بعد أن توقف لفترة من الوقت ، لكنها كانت «علقة» عابرة انتهت بتسوية الأمر ، واعتبر الضابط أن الأمر كان مجرد سوء تفاهم... وانتهى ، لقد ضرب هو وسجانوه عدة مئات من البشر بسبب سوء تفاهم ، وزال سوء التفاهم وما من شيء يستحق التفكير أو الاعتذار... وعاد الضابط يضحك في مودة وكأنه لم يفعل شيئاً .

كانت جراح الكثيرين لا تزال تنزف ، والضربات المتتالية لا تشعر بآلامها إلا عندما يأتي الليل ، وتهدأ الأعصاب ويبدأ الألم المكبوت في التفجر... مزيج من التوتر العصبي مع الألم العضوي... مع الحقد الممزوج بالدهشة .

وكانت الدهشة زاداً حقيقياً يزدرده المسجونون الشيوعيون بعد قرارات التأميم عام ١٩٦١ ، لماذا يستمرون في السجن ؟ ولماذا يعطى هذا الضابط الحق في أن يضرب مئات السجناء الشيوعيين في ظل شعارات «الاشتراكية» بل «والاشتراكية العلمية» ، التي أصبحت تتردد بكثرة والتي يسارع الى ترديدها أناس من كافة الماركات .

وأغلقت الأبواب... أبواب الزنازين ولا أبواب الدهشة ، وأسرعت لأحفر ذلك المخبأ وأستخرج منه وسيلتنا الأساسية للاتصال بالعالم... «راديو ترانزستور» .

كانت أصوات الجرحى تتصاعد من غرفة المستشفى القريبة ، والجو كله تلفه كآبة قاتمة . فهنا تصبح الآلام أكثر عمقاً لأنها ممزوجة بالمهانة التي تستشعرها وأنت ترى جسدك مسرحاً للطمات مجنونة طائشة وأنت لا تملك حق الدفاع عن نفسك...

وخرج الترانزستور من مكمنه ، وبدأت الأصابع المنهكة من الألم والتوتر تلتقط الأنباء واحداً واحداً ، إذاعة إثر إذاعة ، كل شيء كالمعتاد... صوت العرب... القاهرة... راديو لندن ثم يدور المؤشر لأسمع «هنا موسكو» .

وبعد نشرة أخبار موسكو التي تضمنت تفاصيل كثيرة عن نجاحات الكولخوزات وعن محصول القمح الوفير أعلن المذيع أنه سيقرأ مقالاً هاماً عن

«مصر» كتبه مراسلا البرافدا في القاهرة «بيبيلاييف» و«بريماكوف» وارتفعت درجة الانصات واستعدت الأقلام والأوراق لتسجل كل حرف ليوزع المقال على الرفاق في الصباح وقرأ المذيع عنوان المقال «الأفراح على ضفاف النيل» .

لم يكن ثمة خطأ في المقال... لكن أصوات أنين الجرحى كانت تمتزج في تناقض مثير مع الحديث عن الأفراح...

وأعدت الجهاز إلى مكمنه... ولم تصدر نشرة الأخبار في الصباح ، ذلك أنني لم أستطع التخلص من انفعالي طوال الليل .

حقيقة كانت التأميمات خطوة عظيمة جديرة بحق أن تقيم أفراحاً على ضفاف النيل... لكن لماذا التأميمات ونحن في السجن ؟ ونحن نضرب ونعذب ؟ وعائلاتنا تقتات الحرمان ؟

كنت أعرف أن إحساسي بالألم ذاتي بحت ، وأن السياسي غير مسموح له أن يفرض آلامه الذاتية على التحليلات السياسية . كانت الآلام موجعة تلك التي فُرضت علينا... ونحن الذين حلمنا بالاشتراكية سنين طويلة... وكنا أول من خط حروفها على أرض مصر ، كنا أول من صنع من آماله وأحلامه وعذاباته وعرقه راية للاشتراكية... كنا نحن الذين تحدينا كل شيء... كل شيء لنعلن أننا اشتراكيون... كل هذا صحيح ، لكنه أيضاً لا يمكنه أن يفرض على «السياسي» موقفاً ذاتياً خاطئا ، ولقد أخطأ البعض فنسجوا من آلامهم ومن عذابات السجن تحليلاً سياسياً أسمى التأميمات «رأسمالية الدولة الاحتكارية» وأسمى عملية تصفية قطاعات واسعة من الرأسمالية الكبيرة بأنها «تأمين للمصالح الاستراتيجية للرأسمالية» ولكم كان موقفهم سهلاً ، كان قادراً على الأقل أن يريحهم من بعض آلام السجن وأن يريح إلى حد ما أعصاب السجين...

أما ذلك الذي تخلص من آلامه ، ووطأها تحت أقدامه ، وأيد التأميمات كخطوة اجتماعية هامة تصحح إلى حد كبير مسار الثورة وتضعها على عتبة طريق صحيح... ذلك الذي انتزع من بين عذاباته خيطاً من الأمل لمصر ، كان من الصعب عليه أن يحتمل... «الأفراح على ضفاف النيل»... نعم... بالفعل ، لكننا لا نزال هنا في السجن...

ومرة أخرى لا تكون العودة إلى «نحن» ألماً ذاتياً بل شيئاً أعمق من ذلك... لأنها تقود إلى تساؤل أخطر... من «نحن» ؟

إن كان «هو» صحيحاً مائة بالمائة ، فهل «نحن» مخطئون ؟

وهل كل ما لدينا من «صحة» مرجعه إلى نسبة بالمائة من أخطائه... ؟ ولماذا ينشأ تناقض بيننا وبينه ؟

إن كان «هو» يحقق النجاحات ويرتكب بعض الأخطاء فما هي أخطاؤنا «نحن» ؟... وما هي نجاحاتنا... ؟

لماذا يتخذ منا هذا الموقف ؟ هل يخشانا ؟... ولماذا ؟ هل يكرهنا ؟... ولماذا ؟

ومصر أملنا جميعاً مع مَنْ ؟ معه ؟... معنا ؟ أم مع الجميع ؟ والعمال والفلاحون الذين أعطاهم التأميمات والإصلاح الزراعي معه... ؟ أم معنا... ؟ أم مع الجميع... ؟

ولماذا «هو»... و«نحن» ؟

لماذا هذا التناقض ؟ هل هو تناقض واقعي ؟ أم هو تناقض مفتعل ؟

عشرات من الأسئلة أثارها ذلك العنوان «الأفراح على ضفاف النيل»... ومرة أخرى جلست طويلاً محاولاً أن التقط خيطاً واحداً من هذا النسيج المعقد علّه يصل بي إلى الحقيقة .

مقدمة ٤

مشاركة صامتة في حوار عنيف

كانت الكآبة تلف مصر كلها ، والسحابة السوداء الكثيفة تخيم فوق كل الأرض العربية أما بقية العالم فقد كان نصيبها الدهشة البالغة .

بضربة واحدة هُزمت مصر... وفي دقائق انهارت الأسطورة التي نسجوا حولها خيالات يعرفون هم أنفسهم أنها كاذبة لكنهم استكانوا إليها وصدّقوها... « ... أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط »... « ... طيراننا يعد وجبة إفطار ساخنة للعدو »... « قوة الردع المصرية ترعب العدو » .

كانت هذه هي الأقوال الأكثر اعتدالاً وتعقلاً ، أما « صوت العرب » فقد كان له شأن آخر ، كان يعيش في عالم تلفه غمامات من الخيلاء الأحمق والضجيج المفتعل ، وكان صوت « أحمد سعيد » لا يزال يرن في آذان العالم « وغداً نشرب القهوة في تل أبيب » بينما كان جنود العدو يشربون القهوة بالفعل على ضفاف القناة .

لكن الأكذوبة كانت ماضية في نسيجها الخرافي ، أرقام خيالية لطائرات زعموا أنهم أسقطوها... ومع ذلك فقد كانت قواتنا تتراجع بغير حساب وبغير نظام... دون أن يعرف أحد مَنْ هو المسؤول عن ذلك كله .

وكان المساء الحزين ، مساء ٩ يونيو عندما أذع الراديو أن عبد الناصر سيوجه خطاباً إلى الأمة... كانت الكارثة قد تحددت معالمها ، وعرف الكثيرون حجمها الحقيقي وإن كانوا لم يدركوا بعد معناها .

وكنت أسير على غير هدى في شوارع القاهرة أحمل «الترانزستور» في يدي ، فأنا لم أستطع البقاء في أي مكان ، فالقلق والحزن يطغيان على كياني ومشيت... مشيت بغير توقف وفي ميدان رمسيس كانت جموع لا أول لها ولا آخر يخيم عليها ضجيج من الفرح الصاخب ، أكذوبة أخرى شدّتهم إلى هذا المكان ، قطار عسكري يحمل أكواماً من الجثث وأنصاف القتلى والجرحى وصل محطة مصر من ميدان القتال ، وكالعادة كان يجب أن يستمر المسؤولون في الكذب ، ربما لأن الكذب أسهل وربما لأنه أصبح عادة لديهم ، ولفقوا أكذوبة طافت شوارع القاهرة في سرعة البرق ، القطار يحمل آلافاً من أسرى العدو...

لوريات عسكرية تدخل إلى ساحة المحطة المحاصَرة تماماً وتخرج وهي مغلقة تماماً ، والجماهير ـ حسنة النية ـ تستقبل جثث أبنائها بالفرح الغامر... ألوف تسلقوا الشرفات والأشجار وأعمدة النور وتمثال رمسيس ليلقوا نظرة على ما يعتقدون أنه أسرى العدو فإذا بهم فرحون باستقبال أبنائهم القتلى .

أية أكذوبة!... بل أية كارثة!

كانت مظاهرة الفرح منصوبة في ميدان رمسيس ، بينما سكين العدو الغادرة تحزّ عميقاً في قطعة من جسد مصر...

وكنت أعرف الحقيقة ، كنت أعرف أن قصة أسر لواء كامل للعدو أكذوبة سافلة ، وتجسد أمام عيني هول الحقيقة المفزع...

... لكن شعب مصر كان أكثر وعياً من حكامه وكان أكثر منهم شرفاً ، وتناسى الخديعة والكذب ، تناسى كل الأخطاء وما هو أكثر من الأخطاء ، وانطلق في أعقاب إعلان عبد الناصر لاستقالته ليصنع موقفاً تاريخياً بالغ الروعة ، وفي دقائق امتلأت الشوارع بالجموع الحزينة ، الفقيرة ، المضطَهدة ، التي سُلب منها حقها في أن تتنفس وأن تتكلم بحرية ، والتي أُجبرت على ابتلاع الخداع والأكاذيب وعلى التظاهر بتصديقها...

انطلقت جموع الفقراء لتثبت أنها أكثر وعياً من حكامها وأنها أكثر منهم نبلاً .

آن لمصر أن تتكلم...

مصر تتكلم...

مصر التي سكتت طويلاً وصبرت طويلاً...

مصر التي أثقلوا صدرها بأعبائهم وأخطائهم...

مصر... التي كبلوا يديها ورجليها وارتضت منهم ذلك ما داموا لها أبناء مخلصين وغفرت لهم ما داموا حسني النية .

مصر... التي احتضنتهم ومنحتهم الحماية عندما كانوا ضعافاً يبحثون عن مصدر للقوة ، ثم احتملت منهم طيش القوي الغاشم عندما أصبحوا أقوياء .

مصر جاءت اليوم لتغفر للمخطئين من أبنائها ، ليس عن طيبة قلب وإنما عن وعي .

وتكلمت مصر... وأنصت التاريخ باهتمام ودهشة ، فقد كانت كلمتها غير متوقعة . لقد وقفت ـ مرة أخرى ـ مع عبد الناصر... رغم كل شيء ورغم الهزيمة .

نادت باسم البطل المهزوم... ورفعت صورته عالياً .

ولعلها كانت المرة الأولى في التاريخ التي يصعد فيها قائد مهزوم سلم البطولة ولعلها المرة الأولى التي تلتف فيها الجماهير حول قائد خسر المعركة لتحميه من نفسه ومن أخطائه... لتغفر له وتحرسه من أصدقائه ، ومن أعدائه معاً...

ومشيت مرة أخرى ، تظاهرت مع جموع الفقراء ، وانتقلت من مظاهرة إلى مظاهرة ، وأحسست بتعب قاتل ، حتى وجدت نفسي منهكاً متقطع الأنفاس على مقعد في محل «جروبي» أطلب كوباً من الماء... وإلى جواري عجوز متأنق ظاهر المعالم... ليس بحاجة إلى وصف دقيق ، يكفي أن كل حركة منه ، كل لفظة تفوه بها ، ملابسه ، ربطة عنقه ، عصاه... كانت كلها تدل على أنه واحد من إقطاعيي ما قبل يوليو...

وأقبل الجرسون النوبي الأسمر متجهم الوجه ليعطيني ماء وليتناول الحساب من «البيك»... وكان صوت المظاهرة لا يزال عالياً صاخباً .

ـ رعاع قالها العجوز... وصمت النوبي ، ربما لأنه لم يفهم معناها وربما لأن حزنه العميق قد منعه من الرد) .

لكن رنين الهزيمة شجع الاقطاعي العجوز على أن ينفض عن صدره كلمات احتبسها فيه ـ خوفاً ـ لسنوات طويلة .

ـ عايزين إيه الكلاب دول ، مش كفاية البلاوي اللي عملها ، ولسه بيهتفوا له ، ده يستحق الشنق .

(ولم يطق النوبي الأسمر صبراً) .

ـ يا بيه اسكت ، هو ماله ، هو راجل عظيم طرد الإنجليز وساعد الفقراء... الضباط همه المسؤولين .

ـ طرد الإنجليز صحيح لكن طردكم إنتم كمان من النوبة وشردكم...

ـ هوه يعني طردنا علشان يبني سراية لأبوه ولا علشان يبني السد العالي...

ـ غلط كله غلط... السد العالي غلط ، الإصلاح الزراعي سرقة... التأميم نهب ، كله غلط... غلط... غلط .

كان البخار المحتبس ـ لسنوات عديدة ـ في صدر الإقطاعي العجوز يتفجر ، لأنه لم يعد يشعر بالخوف ، لقد شعر للمرة الأولى في حياته أن قبضة عبد الناصر الجبارة تتهاوى من حول رقبته ، وصاح بأعلى صوته :

ـ ده راجل مجرم ، ده يستحق الإعدام ، كفاية حرم البلاد من الكفاءات وشجّع الرعاع...

ولم يطق النوبي الأسمر صبراً ، وكأنما أحس بخطر ارتفاع صوت الإقطاعي ، وكأنما أحس أن مجرد تهاوي قبضة عبد الناصر عن عنق الاقطاع قد شجع هذا الإقطاعي على أن يمد يده لتقبض على عنقه الأسمر النحيل... أحس بوعي غريزي أن هزيمة عبد الناصر تعني هزيمته هو ، وتعني انتصار أعدائه ، وكان العجوز الإقطاعي يتفجر حماساً أو غيظاً ـ لا أدري ـ لكنه كان لا يزال يردد :

ـ ده مجرم ، مش كفاية النهب ، مش كفاية إذلال الأشراف ، مش كفاية الإرهاب ولسه كمان بيسلم البلد لإسرائيل...

وارتفع الصوت الأسمر الكادح :

ـ إنت اللي مجرم... إنت مش زعلان علشان مصر ، إنت زعلان علشان أرضك اللي خدها الاصلاح الزراعي .

وفجأة تكوم البخار المتفجر وتراجع سريعاً ـ وفي جبن ظاهر ـ إلى صدر الاقطاعي ليحبس من جديد خلف مزاليج الحذر الجبان .

وسحب الرجل عصاه في يده وانسحب .

وظللت في مكاني أفكر...

أفكار مشوشة متهالكة ، مرارة الهزيمة تتجسد بالفعل طعماً مريراً في فمي ، مصر... كيف تُهزم بهذه السهولة ؟

عبد الناصر... كيف ارتفع بنا بسرعة ثم هبط بنا بسرعة أكبر... ؟ الناس البسطاء الفقراء ، كيف ارتفعوا بأنفسهم فوق كل أخطائه ليقولوا كلمة صدق واعية... في أحلك ساعات الهزيمة وفي وقت فقد فيه «القادة» القدرة على التفكير .

ومرة أخرى عبد الناصر... ذلك الرجل الذي أحبه الفقراء كل هذا الحب الذي استطاع أن يغفر حتى خطيئة الهزيمة ، والذي كرهه الأغنياء كل هذا الكره إلى الحد الذي نسوا معه مأساة الوطن ليقتنصوا فرصة لمطامعهم وأحقادهم .

ويلح ذلك السؤال... ؟

كيف أحبه الفقراء كل هذا الحب... ؟

وكيف كرهه الأغنياء كل هذا الكره ؟

ولا بد لكل هذا الكم من الحب والكراهية من أن يصبح معياراً بالغ الدلالة في تحديد مكانة الرجل من شعبه ومكانته تجاه قضايا أمته... ومكانته تجاه التاريخ .

كل هذا الحب من جانب الفقراء لا يمكن أن يكتسب بمجرد الكلمات

ولا المبالغات ، بل لعله اكتسب برغم الكلمات والمبالغات الكثيرة...

والفقراء... والعمال والفلاحون يملكون من الذكاء والوعي الطبقي المرهف ما يجعل لحبهم الغامر لعبد الناصر دلالة بالغة القيمة... لدى أي تحليل علمي...

والأغنياء... كبار الملاك وكبار الرأسماليين... يملكون أيضاً من الذكاء والإحساس الطبقي ما يجعل لكراهيتهم العميقة لعبد الناصر مغزى يتعين على أي باحث أن يتفهمه .

الحب الذي يغفر حتى الهزيمة... والكراهية التي تطغى حتى على آلام الوطن ، كانا دليلاً قاطعاً على قوة عبد الناصر وعلى إيجابيته تجاه الجماهير... وعلى وطنيته وثوريته معاً...

وفي غمرة الحزن العميق ، وبينما مرارة الهزيمة تعطي للحياة كلها طعماً كئيباً... كانت صورة عبد الناصر تزداد تألقاً في ذهني...

كم كان هذا عجيباً ومريراً في الوقت نفسه ؟ .

لكنه جانب آخر من جوانب الصورة المعقدة للناصرية...

وأخــــيـــرة

والآن...
هل أستطيع أن أبدأ...

لم يكن البحث عن الحقيقة مجرد رغبة في الفهم ، ولا كان متعة لمثقف يشتاق إلى أن يسوق أفكاره نحو الورق ، ولا كان حتى محاولة لاستقصاء مصدر كل هذه التناقضات الكامنة في الناصرية... وإنما كان أملاً ملحاً في العطاء... أملاً في أن يلتقط الانسان خيطاً واحداً غير مليء بالعقد ، خطاً مستقيماً واحداً لا تفنيه الانحناءات والالتواءات...

ولم يكن ذلك البحث عن الحقيقة مجرد تأملات سجين حبيس زنزانة ، أو حتى سجين مُطلق السراح يعاني من عزلته عن شعبه هولاً أشد وأقسى من معاناته داخل السجن ، بعد أن خرج إلى مصر« جديدة» تماماً .

فقد خرج «الرفاق» من عذاب السجن إلى عذاب أكثر مشقة ، عذاب مشحون بالغربة والعزلة ، فلم يكن السجن مجرد حرمان من النضال ومن الأهل ومن معايشة الواقع لكنه كان ـ وهذا هو خطره الأكبر ـ حاجزاً عازلاً عن الواقع...

خرج «الرفاق» ليجدوا مصر تموج برايات تحمل كلمات «الاشتراكية» و«الثورة» و«العمل الثوري» لكنها كانت مجرد كلمات...

كلمات أصبحت سلعة رابحة لغير أصحابها ، يتاجرون بها ويكسبون ويقفزون عبر درجات سلم العمل السياسي صعوداً ، كلما ازدادوا نفاقاً وقدرة على الثرثرة وكلما ازدادوا قدرة على تجميدها عند حدود الكلمات .

أقول كانت سلعة رابحة لغير أصحابها ، لأنها بذلك أصبحت بائرة لأصحابها الذين أحسوا أن ترديد الألفاظ نفسها لن يكسبهم إلا نظرات السخرية من جماهير كانت تتطلع إلى المهزلة الكلامية في احتقار بالغ .

كان التعايش مع المهزلة شيئاً بالغ الصعوبة والتمايز عنها صعب أيضاً...

لقد كانت الكلمات تُمتهن...

بل كان يُنتهك عرضها... إن جاز مني هذا التعبير ، كانت كلمات «الاشتراكية» «الثورية» «العمل الثوري»... الخ تخرج من أفواه الكثيرين وكأنها ألفاظ داعرة بذيئة تصك آذان مستمعيها بالتقزز والنفور إذا ما قارنوا بين الألفاظ والمتكلم ، الألفاظ تبرق برنين الثورية والمتحدث تاجر كلمات يستخدم الكلمات سبيلاً لحياة مرهفة منعمة بينما جماهير شعبه تعاني من الفقر والحرمان ، بل وتعاني أيضاً من مرارة الاستماع إلى منظومات من كلمات جوفاء ، وهكذا اعتادت جماهير مصر عادة غريبة أن تنصت في غير استماع ، أن ترهف آذاناً صماء وعقولاً ترفض كل ما يقال .

كانت الكتابات عن الاشتراكية ملقاة على أرصفة الطرقات لتعطيك شعوراً قاسياً بأن «الاشتراكية» قد ألقيت هي بذاتها على الأرصفة فلقد كانت الكلمات عنها تتردد بالكثرة نفسها التي يتم بها انتهاك القيم الاشتراكية الحقيقية .

« الاشتراكية » نظرية... وسلاح... وسلاح مضاد .

ولقد كانت ـ في مصر ـ في ذلك الحين سلاحاً وسلاحاً مضاداً في آن واحد بحسب هوية الذي يرددها... والكثرة منهم استخدموها سُلَّماً لمطامعهم ومطامحهم وضد مصالح شعبهم . لكن ذلك كله لم يمنع الكلمات من أن تخصب أزهاراً يانعة في أرض مصر الخصبة .

فلقد كان مجرد إعلان الاشتراكية كعقيدة رسمية للدولة ضربة ساحقة للفكر الرأسمالي ونظريته ، ضربة أحدثت تعديلاً هائلاً في ميزان القوى المحلي لصالح اليسار...

ذلك أن تأكيد عبد الناصر على اختيار طريق البناء الاشتراكي كسبيل وحيد ولا سبيل غيره لبناء مصر ، أو كما عبّر عنه في ميثاق العمل الوطني « بحتمية الحل الاشتراكي » ، كان خطوة ثورية كبيرة تحمل في ذاتها مضامين غاية في الثراء وغاية في العمق ، وكان بغير شك مساهمة نظرية ذات قيمة عالية تستهدف بالدرجة الأولى سد الطريق أمام النمو التقليدي للرأسمالية . وبهذا فقد انتقلت المعركة السياسية أو بالدقة قفزت قفزة واسعة إلى مرحلة كيفية جديدة ، مرحلة هُزم فيها النموذج الرأسمالي هزيمة ساحقة وأصبح على الرأسماليين ـ لكي يستمروا في الحياة ـ أن يتحايلوا ويتلونوا ويتسللوا ، ولقد نجحوا أحياناً ، لكن نجاحهم هذا لم يكن ليخفي حقيقة هامة وهي أن نموذجهم قد هزم في الأساس...

كذلك فإن إعلان الاشتراكية عقيدة رسمية للدولة كان انتصاراً فكرياً وسياسياً لا يستهان به ، فقد أتاح الفرصة « لليسار » ومنحه نوعاً من الحصانة ـ ولو قليلاً ـ ومساحة من المقدرة ـ ولو ضيقة ـ على هدم الفكرة الرأسمالية ونقدها وعلى تمجيد الاشتراكية وشرح أهدافها الحقيقية ونشر

الكثير من أدبياتها... وعلى خلق تيار واسع يتجه نحو اليسار ، تيار يتكون من عناصر شابة وشريفة... شبان ثوريين مخلصين التفوا حول راية الناصرية بغير مطمح سوى خدمة مصر وشعبها ، وبرغم الفساد الذي كان يموج به الوعاء السياسي فقد صمدوا وسموا بأنفسهم عن الفساد الإفساد... صحيح أن البعض قد تساقط لكن البعض صمد ، كان اشتراكياً بحق ، صدّق الكلمات التي قيلت وتمسك بها في وجه أصحابها ، وقاومهم بها ، صارعهم بها... صمد في وجههم بكلماتهم .

وهكذا تمايز طابور الناصرية في طابورين أساسيين : طابور ردد الكلمات مجاراة ومسايرة ، أو تملقاً وتسلقاً ، وطابور آخر تمسك بالكلمات وأخصبها ونما معها وبها واستخدمها سلاحاً من أجل مصر وشعبها .

وعلينا لكي لا نخطئ أن نميز بين هذا وذاك ، فلقد رفع كل منهما اللافتة نفسها وانتمى للوعاء نفسه وردد الشعارات نفسها وسار خلف القائد نفسه لكن الوجدان مختلف والهدف مختلف...

وعندما كان عبد الناصر حياً وكان يمسك في يده عصا المايسترو يحرك بها طوابير الناصرية كما يشاء ، كان يعرف أن فيهم المخلص وغير المخلص... كان يدرك جيداً أن فيهم الثوري وغير الثوري ، الاشتراكي وغير الاشتراكي ، لكنه كان بحاجة كي يستمر في نمط حكمه إلى الصنفين... في توليفة واحدة متناقضة ، يخيف هذا بذاك ، ويقلم أظافر هذا...

هكذا اختار عبد الناصر أسلوبه في الحكم... وعندما رحل كان قد ترك بهذا الاختيار تركة مثقلة .

وبعد غيابه يصبح الخطر أكبر وأفدح ، فالدعاوى تتكاثر ومستحقو الإرث يتقاطرون من كل مكان ، كلّ يدعي أنه الوريث الوحيد ، ولأن

الناصرية «حمالة أوجه» كما يقولون فهي تحتمل ادعاءات أو حتى سخافات بعض الذين يدّعون اليوم قربهم منها...

وهذه عملية تاريخية يقع عبؤها على الناصريين أنفسهم - وهم وحدهم إن كانوا مخلصين حقاً لناصريتهم مطالبون بعملية الفرز والتمايز هذه...

هذه مهمتهم... الأولى والأساسية ، فهي أكثر إلحاحاً من أي شيء آخر .

ضباط يوليو... أبناء من؟

ذلك هو السؤال الذي حير الكثيرين ، من الذين حاولوا أن يفهموا طبيعة ثورة يوليو ، وطبيعة منطلقاتها ، والمحتوى الطبقي لهذه المنطلقات .

ولعل الصورة كانت بالغة التعقيد إلى الحد الذي دفع هؤلاء الكثيرين إلى تجنب محاولة تحديد الطبيعة الطبقية لحكام يوليو...

وبرغم أن البعض كان يرى ـ سواء خطأ أم صواباً ـ بأنه عند تحديد الموقف من أي حكم يتعين أولاً ـ وقبل كل شيء ـ تحديد الطبيعة الطبقية لأصحابه ، فإنه في حالة ثورة يوليو نجد أن معظم المحللين قد اكتفوا بالتفسير أو التوضيح ، بالتأكيد أو المعارضة ، بالنقد أو التحبيذ... دونما خوض في مسألة التحديد الطبقي هذه...

ولسنا ندعي أن الأمر يخلو من دراسات علمية متعمقة حول ثورة يوليو التي استحقت بالفعل اهتماماً عالمياً واسع النطاق ، والتي كتب عنها وعن قائدها عشرات وربما ما هو أكثر من العشرات من الكتب والدراسات والتحليلات ، والتي ظلت لفترة من الزمن محط أنظار الساسة والمفكرين ومحور اهتمامهم ودراستهم... لكن الذي نعنيه هو أنه حتى في مثل هذه

الكتابات العلمية تجنب الكثيرون تحديد الطبيعة الطبقية للنظام .

ليس عن عجز... ولا عن عدم تلمس للحقيقة ، وإنما عن عمد .

لكن... لماذا هذا العمد ؟

ربما لأن شخصية عبد الناصر الآسرة وجماهيريته العريضة في الأمة العربية قد خلقت منه ـ في مرحلة ما ـ بطلاً يصعب تصنيفه ضمن المصنفات المتعارف عليها تقليدياً...

فهو ليس بروليتارياً... ما في ذلك شك... هو لا يدعي ذلك ولا حتى يرتضيه...

وهو في الوقت نفسه يشن حملات سياسية واقتصادية واجتماعية ضد مواقع وأشخاص البرجوازية الكبيرة وكبار الملاك العقاريين .

والقول بعد ذلك بأن برجوازياً صغيراً أو متوسطاً يثير كثيراً من الصعوبات أمام العديد من التحليلات ويجعلها تقف عاجزة أمام تصوراتها لواقع الناصرية وأحلامها ـ التي حلقت بعيداً ـ حول مستقبلها .

البرجوازية الصغيرة تعني في أحيان كثرة التردد وقلة الحيلة وتعني في أحيان أخرى المناورة واللامبدئية... الخ .

ولعل ما زخرت به الأدبيات الماركسية من انتقاد مر لمنهج ووسائل البرجوازية الصغيرة وإدانات صريحة لفكريتها هو الذي دفع الكثيرين من المحللين الماركسيين الى التردد إزاء تصنيف ضباط ثورة يوليو...

ولم يكن عبد الناصر ـ في قمة أمجاده ـ ليسمح لأحد من أصدقائه بأن يلصق به وصفاً ـ تراكمت حوله انتقادات كلاسيكية عديدة ـ ولم يكن أصدقاؤه في مصر أو خارجها ـ وخاصة الماركسيون منهم ـ بقادرين على

إلصـاق هذا الوصف به ، ليس خـوفـاً من عـبـد الناصـر ، وإنـمـا خـوفـاً على تحليلاتهم وآرائهم من أن تتبدد أمام التعريف التاريخي للبرجوازية الصغيرة...

وهكذا تجاهـل الكثيـرون ـ من الأصدقـاء ـ وربـمـا كلهم تحليل الطبيعة الطبقية للنظام مكتفين بتحليلات جزئية ، وتقييمات عامة ، بالغت في كثير من الأحيان وتجنبت أي نقد جاد لأخطائه وتباعدت عن لمس الجوهر الفعلي وهو التحليل الطبقي .

أمـا أعداء الناصرية فـقـد ألصقـوا بهـا عـشـرات من المظالم والتـرهات (فاشية ـ أعلى قمم الرأسـمـالية ـ رأسـمـالية الدولة الاحتكارية... الخ) وكلها هراء لفظي لا يستند إلى أي بحث علمي ولا يستقيم على أقـدامـه ، وليس بحاجة لنقد فلقد تسـارع أصحابه إلى التخلي عنه محاولين جهدهم نسيانه مكتفين اليوم بتناسي الماضي والاستمتاع بلذة الحاضر .

لكن خطأ الأصدقاء ، لا يكمن ـ في حقيقة الأمر ـ في كونهم لم يبحثوا عن الصدق العلمي ، محللين الوضع الطبـقي دون حساسيات... وإنمـا لأنهم لم يدركوا طبيعة أنظمة البرجوازية الصغيرة في عالم اليوم . وأن طبيعة توازنات القوى التي تغيرت في عـالمنا لصالح الاشتراكية تغيـراً ملحوظاً قد منحت هذه الأنظمـة الفـرصـة والقـدرة والأمـد لكي تلعب دوراً ايجـابياً متنامـياً . وأعطت للبـرجوازية الصغيرة كطبقة فرصة للعمل التقدمي والثوري أوسع بكثيـر مما كان متاحاً لها من قبل عند وضع هذه التعريفات الكلاسيكية...

واضح أننـا نريد القـول بأن ضبـاط يوليـو أبنـاء للبـرجـوازية الصـغـيـرة والـوسطى... ويمكـنـنـا أن نلمح ذلك منذ الـوهلة الأولى إذا مـــا تـمـــسـكـنـا بالانتماء العائلي... فهم أبناء موظفين صغاراً أو متوسطين ومزارعين متوسطين أو أغنياء...

لكن الانتماء العائلي يصلح بشكل جزئي فلا هو بالعنصر الحاسم ولا بالدليل القاطع...

ذلك أن الفرد ، بغض النظر عن انتمائه الأسري تتكون لديه قناعات وأخلاقيات وقيم ومثل وثقافة... ويتخذ لنفسه مساراً فكرياً قد ينأى به عن طبقته فيقف في ميدان طبقة أخرى .

والنموذج الحي لذلك هو الشيوعيون ، فإن الكثيرين منهم من مثقفي البرجوازية الصغيرة لكنهم يقفون بموقعهم النضالي والنظري في صف البروليتاريا...

ولقد أجهد البعض نفسه في إيجاد تفسيرات (عائلية) للمواقف السياسية لضباط يوليو ، مقسمين إياهم على أساس الانتماء العائلي وحده .

وهذا خطأ واضح ، ففي هذه العينة بالذات يبدو دور الاختيار الفردي للموقع السياسي بارزاً وحاسماً .

فخالد وزكريا محي الدين أبناء أسرة واحدة... المستوى الطبقي والمعيشي نفسه ، وأحدهما يسار والآخر يمين .

والبغدادي هو أيضاً ابن فلاح متوسط من قرية شاوة مركز المنصورة . أرض أبيه تزرع زراعة تقليدية فهي لا ترتقي في انتاجيتها إلى الحدائق التي تمتلكها أسرة محي الدين... والمستوى المعيشي متوسط تماماً ، والمناخ العام بالقرية مشحون بالنضال الفلاحي من جراء تواجد أحد التفاتيش الملكية في هذه القرية ، بكل ما كان يحمله معنى التفتيش الملكي من استغلال وقهر للفلاحين... لكن الاختيار الشخصي كان الى اليمين .

ولسنا بحاجة إلى أمثلة أخرى .

وعلى أية حال فإنهم بانتمائهم العائلي يقفون جميعاً في صف البرجوازية الصغيرة أو المراتب التي تعلوها مباشرة من البرجوازية الوسطى .

لكن إلى أي نوع من البرجوازية الصغيرة ينتمون ؟

هذا هو السؤال المهم... ذلك أن البرجوازية الصغيرة عباءة فضفاضة تضم فئات عديدة وغير متجانسة...

فالبرجوازي الصغير الفلاح ـ وما يدنو منه من الفلاحين المتوسطين ـ نمط خاص وفريد ، يتعلق بأرضه تعلقاً شديداً ويعتبرها المقياس الأساس لوجوده وهيبته واحترامه... أرضه هي الحقيقة الكبرى ، فالرجل بغير أرض كالزوجة بغير أولاد هكذا يقولون في أمثالهم . وهو يتعلق بقريته ، ففيها يمكن أن يمارس حياته ويحظى باحترام الناس وفهمهم ، وخارجها لا يعرفه أحد ولا يحس به أحد . وهو وطني... وفدي ـ قبل الثورة ـ يكره الانجليز والسراي ، ويتحدث في السياسة كثيراً دون عمق ، يردد الحكايات والأقاصيص نفسها في كل نقاش سياسي ولا يمل من ترديدها . وهو يكره الحكومة ـ أي حكومة ــ فالحكومة لا يأتي من أمامها ولا خلفها أي خير... وهي تتجسد عملياً في حياته اليومية في إقطاعي ينهبه... وعمدة يملي إرادة الإقطاعي... ومأمور يتعسف وصراف يجمع الضرائب...

والحرفي ـ البرجوازي الصغير ـ رجل يحترم يديه وفنه ، يمجد العمل ويعتبره القيمة الأساسية في الحياة ـ اليد البطالة نجسة ـ هكذا يردد كل يوم ، وهو يكتسب كل احترامه لنفسه واحترام الناس له من إتقانه لعمله... وطني ووفدي هو الآخر ـ قبل الثورة ـ ولأنه يحترم العمل فإنه يحترم العمال ، يقيسهم بقدرتهم على العمل المبدع . وهو باعتبار إقامته في المدينة أكثر عمقاً في فهم السياسة ، يكره الإنجليز والسراي ، لكنه لا يتدخل كثيراً فيما

لا يعنيه ، السياسة عنده وجبة شهية من الحديث الطلي المليء بالقفشات والنكات ، لكن النضال السياسي شيء آخر... فهو رب أسرة ، يعيش يوماً بيوم ، لو تعطل يوماً عن العمل جاع أولاده ، قيمته الأساسية أن يستمر في طاحونة العمل ، أما السياسة فهي ترف لم يخلق لمثله .

أما الموظفون من البرجوازيين الصغار فهم أكثر تعالياً وترفعاً ، يتباعدون قدر استطاعتهم عن نشأتهم الأصلية التي غالباً ما تكون أكثر هبوطاً في السلم الاجتماعي ، يتعالون على الفلاحين والعمال والحرفيين برغم ان دخل الحرفي قد يكون أضعاف دخل الموظف ، لكن الموظف يتمتع بهيبة الانتماء للحكومة ، وبمناعة الضمان الوظيفي والاستقرار في كنف المرتب المضمون . والموظف الصغير... وطني ووفدي أيضاً في أكثر الأحيان ، لكن عمله الحكومي... يجعله شديد التحفظ ، قد يحلو له الحديث في السياسة مع بعض الأصدقاء ، لكنه لا ينسى مطلقاً أنه موظف حكومي ، وأن الانغماس في السياسة قد يكلفه يوماً وظيفته وهي المصدر الأساس لخبزه وخبز أولاده ، وهي أيضاً أساس شعوره باحترامه لنفسه .

ومن أبناء هؤلاء ينبع البرجوازي الصغير المثقف ، وهو نمط مختلف ، فهو يتعلم ويحصل على الشهادة كي ينفصل عن طبقته ، كي يصعد أعلى فأعلى... دائماً ينظر إلى فوق يحاول أن يقطع كل علاقاته بالماضي... يريد أن يبدو أمام المجتمع كما هو الآن... وليس كما كان بالأمس ، ابناً لفلاح أو لحرفي أو لموظف صغير لا يزال يتعثر في الدرجات الدنيا للسلم الوظيفي .

والتعليم الحديث في مصر ـ منذ أن أدخله محمد علي باشا ـ كان على الدوام أداة للصعود بالانسان نحو مرتبة اجتماعية مختلفة ، هكذا أراد محمد علي لمثقفي مصر أن ينفصلوا عن آبائهم الفلاحين وأن يجردهم من كل علاقة

بماضيهم الطبقي ، كي يخلق منهم أداة طيعة في يديه ، فكان الموظف يمنح اقطاعات وأراضٍ على قدر قيمة وظيفته... وتحول كبار المثقفين إلى كبار موظفين أي إلى كبار ملاك ، والنماذج عديدة . الدكتور النبراوي ابن لفلاح معدم ، هرب من القرية إلى القاهرة... واصطاده عساكر الوالي محمد علي وساقوه الى المدرسة وتخرج طبيباً ، وبرز في مهنته وصار الطبيب الخاص لأسرة محمد علي وأقطعوه آلاف الأفدنة .

ورفاعة الطهطاوي نموذج آخر ، أمه باعت مصاغها كي تكفل له مصاريف رحلته إلى القاهرة ليتعلم... وتعلم وصار ـ كعادة أهل زمانه ـ واحداً من كبار الموظفين وكبار الملاك معاً .

واختفى محمد علي وأبناؤه ، واختفى أسلوب توزيع الإقطاعات والأرزاق والمنح ، ولكن بقي منهج البرجوازي الصغير المثقف الذي يتعلم كي ينفلت من أسار طبقته ويصعد .

وهو يصعد متظاهراً بأنه لا علاقة له بالماضي مغلفاً ذلك التناسي بالتعالي والترفع على العمال والفلاحين وعلى أبناء طبقته القدامى ، خالقاً من نفسه محوراً للكون معتقداً أن عليه ـ في أحسن الأحوال ـ التفضل عليهم ببعض الخدمات ، ليس لأنه واحد منهم ، وإنما لأنه عطوف طيب القلب .

وهو في الوقت نفسه عدو للاستعمار ، تشحذ عداءه هذا منطلقات عديدة... الوطنية ، الكرامة ، الإحساس العميق بالمصرية... وكثيراً ما يمزج محبته لمصر وافتخاره بأمجادها وتاريخها الماضي بنوازعه الشخصية نحو التعالي والكبرياء ثم يمزج من ذلك كله أنشودة وطنية دافقة الحماس .

وهو يكره الإقطاع وكبار الملاك ، فإن آثار استبدادهم بأبيه وأجداده ، بل به نفسه لا تزال تدمي كرامته .

وهو يكره كبار الرأسماليين ، إنهم القمة العالية التي لا يستطيع أن يصعد إليها ، إنه يرفضهم لأنهم ينهبون من خيرات مصر ما يعتقد أنه هو أولى به ، ويرفضهم لأنه لا يستطيع أن يصل إلى مستواهم ، فهم ينهبونه ويمنعونه من الصعود معاً .

وهو يصوغ موقفه تجاه البرجوازيين الكبار في صورة بالغة التعقيد فهو يرفضهم ويرفض أسلوبهم في الاستغلال ، لكن روح البرجوازي الصغير ، الكامنة في أعماقه تدفعه إلى التطلع نحو نمط حياتهم وأسلوب معيشتهم...

إنه يشعر أنهم استغلاليون... صحيح أن الاستغلال ليس موجهاً ضده أساساً وإن كان يمسه بالضرورة ، لكنه يعيش دوماً مستشعراً وطأة الاستغلال ، ليس فقط عن طريق النهب المباشر وإنما عن طريق الحاجز الخرافي الذي يقيمونه أمام تطلعاته...

إنه يرفض الاستغلال فلا مصلحة له فيه ، وهو يرفضه أخلاقياً لكنه يفتقد الإحساس الطبقي أو بالدقة المعاناة الطبقية في رفضه لهذا الاستغلال ، ومن هنا يأتي رفضه واهياً وأخلاقياً ، بل إن مناداته بالمساواة لا تعني مطلقاً بالنسبة له ـ أن يتساوى مع العامل أو الفلاح... لكن المساواة في منطقه تعني أن يصعد هو إلى أعلى حيث يقتسم مع الأغنياء ترفهم وثراءهم .

وهو يطالب للعمال والفلاحين بحياة أفضل لكنه لا يتصور مطلقاً أي شيء يمكن أن يدفع بهم إلى مواقع السلطة الفعلية ، إنهم «أولاد طيبون» قد يستحقون العطف لكن مكانهم ليس في قمة السلطة بأي حال من الأحوال... السلطة أمله هو... مكانه هو... هو المثقف... المتحدث اللبق... السياسي المتعمق... هو بكل تطلعاته وأحلامه المحلقة دوماً إلى أعلى . هذا كله إذا ما كان يعلن أنه ثوري وتقدمي...

الثـورة من أجل الوطن... نعم ، لكنه هو المنقـذ ، من غـيـره يمكن أن يكون منقذاً ؟

التقدم من أجل الشعب... نعم ، ولكن تحت قيادته هو ، من غيره يمكن أن يكون قائداً ؟

المـزيد من الحقوق للعمال والفلاحين... نعم ، ولكن ليس لأنها قوى طبقية ثورية طليعية ، وإنما لأنها فئات مظلومة بائسة تستحق العطف والرعاية...

وهكذا فإنه إذا جاز لنا أن نلخص المكونات الذهنية والفكرية للمثقف البرجوازي الصغير في مصر أمكننا أن نقول :

- إنه وطني... يعشق مصر ، يمزج كبرياءه الشخصي بأمجادها القديمة وينسج من ذلك منطلقاً وطنياً مفعماً بالحماس...
- ضد الإقطاع وكبار الملاك... ضد الرأسمالية الكبيرة...
- يتطلع دوماً إلى أعلى ، يكره البرجوازية لكنه يعشق نمط حياتها .
- يعطف على العمال والفلاحين لكنه لا يقبل أية مساواة تعني تساويه معهم ولا يتصور إمكانية مشاركتهم مشاركة فعلية في السلطة .
- مرهف الإحساس بالكرامة الشخصية ، والكرامة الوطنية معاً .

هذه هي الصورة الكلاسيكية...

لكنها مع مضي الزمن ومع تطورات الأحداث تكتسب رتوشاً تكسبها ملامح جديدة...

ففي سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وخاصة ابتداءً من الخمسينيات حيث بدأ الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي في ممارسة دور هام في التوازن الدولي...

وبعد سياسة الانفتاح التي قام بها القادة السوفييت تجاه ما أسمي بالعالم الثالث أحياناً ، وأحياناً أخرى بالدول المستقلة حديثاً ، ونتيجة للمساندة الهائلة التي يقدمها الاتحاد السوفييتي لهذه الدول ولحركات التحرر الوطني المناهضة للاستعمار عموماً ، ومع تطور دور الاتحاد السوفيتي في ميزان القوى العالمي ومع استمرار مساندته ودعمه لهذه الدول بحيث تطور في بعض الاحيان إلى أن أصبح مصدراً هاماً من مصادر تطورها الاقتصادي وسنداً أساسياً لسياستها المناهضة للاستعمار والرامية إلى كسب وتعزيز الاستقلال الوطني...

نتيجة لذلك أصبح الموقف من الاتحاد السوفييتي وتجاهه يمثل جانباً من الصورة... وواحداً من مكوناتها...

ويتخذ المثقف البرجوازي الصغير... الموقف الجدير به كبرجوازي صغير .

فالاتحاد السوفييتي يساند مصر في دفاعها عن استقلالها وفي معركتها ضد الاستعمار وإسرائيل ، وهو يقدم لها معونات ضخمة في التصنيع ودعم الاقتصاد الوطني المستقل ، وهو يمكن بذلك من بناء مصر... المتقدمة المزدهرة التي تليق بآمال وأحلام المصريين...

ومن ثم يقف المثقف البرجوازي الصغير إلى جانب الصداقة المصرية ـ السوفييتية ، وهو لا يخلو من الاعجاب بمعدلات ونمط التقدم الذي يحرزه الاتحاد السوفييتي ، لكن موقعه كبرجوازي صغير يشوه صورة الاتحاد السوفييتي أمامه...

فهو أولاً يرفض جوهر النظرية الماركسية اللينينية لأنه كما قلنا لا يتصور أن يقفز «الأولاد الطيبون» إلى السلطة...

وثانياً... فإن النمط السوفييتي لا يروق لخيالاته وتطلعاته الشخصية ، إن

نمط الحياة السوفييتي لا يليق بأحلامه التي تتطلع إلى حياة شديدة الترف لشخصه وليس لشعبه...

وكما أن المثقف البرجوازي الصغير يرفض الرأسماليين الكبار ويتطلع في الوقت نفسه إلى مستوى في مثل مستوى معيشتهم ، فإنه يرفض أمريكا ويهاجمها ويشهّر بها كزعيمة للمعسكر العدو ، ومعسكر الاستعمار والإمبريالية ولكن النموذج الأمثل في خياله يظل دوماً... نمط الحياة الأمريكي .

كذلك فإن الحل الأمثل في رأيه للعلاقة مع الاتحاد السوفييتي ومع أمريكا أو للعلاقة بينهما هو محاولة الاستفادة من التناقضات بين المعسكرين... الأخذ منهما معاً... المحاورة أو المناورة بينهما .

وهنا تبرز فلسفة البرجوازية الصغيرة في «عدم الانحياز» فالأخذ من الاثنين معاً... أكثر ربحاً وأكثر فائدة ...

وقد حققت هذه السياسة في سنواتها الأولى نجاحاً باهراً لأصحابها ، بحيث خيل إليهم أنها السياسة المثلى ، وبحيث استطاعوا أن يتخيلوا أن «ذكاءهم» و«شطارتهم» هي التي حققت مثل هذا النجاح وليس ظروفاً عالمية موضوعية محددة...

وعلى أية حال فقد أخذوا من المعسكرين معاً مساعدات مادية وفنية واقتصادية ، ومكّنهم ذلك من إشاعة مناخ من الرخاء النسبي اتسم بطابع الإغداق على القطاعات الوسطى من السلم الاجتماعي ، والإغداق على المظاهر الجمالية وعلى الخدمات تحقيقاً لأحلامهم في بناء مصر ، ولكنه بناء «سهل» بغير تضحيات ، ولا تضييق على أصحاب الدخول الكبيرة ولا تقليل في الإنفاق الحكومي ، ولا حد من مظاهر الإسراف والترف التي يتمتع بها أبناء الفئات العليا في السلم الاجتماعي وحدهم ، ذلك أنه بناء يعتمد على الأخذ من هذا... وذاك معاً .

وهكذا نجح عبد الناصر إلى جانب ما حصل عليه من الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية ـ وهو أكثر من أن يُحصى ـ أن يحصل من الأمريكان على قروض طويلة الأمد بلغت قيمتها في الفترة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ ألف مليون دولار[١] .

ثم ما لبثت القدرة على المناورة أن تلاشت ، ليس بسبب عجز شخصي وإنما بسبب تلاشي الظروف الموضوعية التي خلقت إمكانية حدوثها ، وعلى أية حال فقد بدأ الجميع بالإحساس بأن فرص المناورة قد بدأت تضيق بمضي الوقت ، وأنه ليس بإمكان أمريكا أن تصبر أو أن تمد حبال الأمل أكثر مما فعلت ، وهكذا قررت أن تقطع شعرة معاوية ، وأوقفت مساعداتها بما في ذلك التسهيلات الخاصة بمد مصر بحاجتها من القمح ، وكان معنى ذلك أن تضطر مصر إلى أن تنفق سنوياً على شراء القمح ٣٠٠ مليون دولار من العملات الصعبة[٢]... تتزايد بطبيعة الحال مع تزايد عدد السكان واستهلاكهم العام .

وهنا بدأ النظام يعاني من المصاعب الاقتصادية ، وتكشفت العيوب والنواقص في الهياكل الاقتصادية والإدارية والتخطيطية ، تلك العيوب التي كانت تخفي نفسها تحت ستار من الموارد غير المحدودة ، وبدأت آثار التخطيط الفاشل تتضح ، وتكشّفت أيضاً أخطار عدم وضع سياسة مدروسة ومعقولة للأولويات ، وتجسدت أمام الأعين بشاعة الإسراف غير المحدود على فئات محددة... وبدأت فترة الاختناق .

وهكذا فإن النموذج الذي طمحت البرجوازية الصغيرة إلى تقديمه... والذي يقوم على أساس البناء بغير تضحيات... وبغير تخطيط علمي... ومن

1- Peter Mansfield- Nasser's Egypt - Penguin African Library 1969 - P 100.

2 - Ibid., P 101

خلال الإغداق غير المحدود على الفئات الوسطى... هذا النموذج بدأ في الاختناق .

والكلمات المنمقة التي قيلت في سهولة ويسر عن البناء دون تضحية ، وعن عدم التضحية بجيل لصالح الأجيال المقبلة ، فقدت قدرتها على الإقناع...

ومن «عدم الانحياز» إلى «الحياد الايجابي»...

ولقد كانت سياسة الحياد الإيجابي خطوة إيجابية واسعة حققها عبد الناصر على طريق الابتعاد عن الغرب ، متخذاً بذلك موقفاً احتذى حذوه الكثيرون...

ولقد مكن «الحياد الإيجابي» مصر... وعبد الناصر من أن يلعبا ـ لفترة من الوقت ـ دوراً هاماً في الحياة الدولية...

لكن الكثيرين من البرجوازيين الصغار فهموا الحياد الإيجابي فهماً غير نضالي ، وليس على أساس أنه في الجوهر منطلق معادٍ للاستعمار وإنما على أساس «المساواة» بين المعسكرين «والحياد» بينهما...

ولعله من حق عبد الناصر أن نسجل له أنه لم يكن واحداً من هؤلاء...

غير أن بعض الكتاب قد حاول التأمل في التكوين الفكري لبناة معسكر الحياد الإيجابي... وسجل على عبد الناصر أنه وهو يسعى نحو هذه الفكرة اختار «نهرو الذي نهج سياسة مستقلة بينما بقي ببلاده في الكومنولث البريطاني ، وتيتو وهو الشيوعي الذي تمرد على زعامة الاتحاد السوفييتي للمعسكر الاشتراكي والذي قبل المعونة الأمريكية»[١] محاولاً بذلك الإيحاء بطبيعة معينة لقادة الحياد الإيجابي .

---

1 - Peter Mansfield - Nasser - Makers of The Modern World - 1969, P P 97

لكننا بذلك نخرج بعيداً عن موضوعنا...

فلنعد إلى المثقف البرجوازي الصغير ، ولنحاول أن نستكمل ملامح الصورة .

وكما برز الاتحاد السوفييتي حقيقة هائلة في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية وكما تزايد دوره وثقله بمضي الوقت ، برزت أيضاً «النظرية الماركسية» كقوة ذات أثر هام بحيث لا يمكن للسياسي أن يتجاهلها ، أو ألا يتخذ منها موقفاً .

فالنظرية الماركسية قد أصبحت بفضل ما حققته من انتصارات سياسية واقتصادية وعلمية ، نظرية لا يمكن تجاهلها ، لا يمكن لأي مثقف أن يعيش بمعزل عنها وعن صراعاتها معها أو ضدها ، ولا يمكن لأي سياسي إلا أن يناقشها ، قبولاً أو رفضاً .

ويتخذ البرجوازي الصغير موقفاً يمليه وضعه الطبقي . فهو يتطور... من «الاتحاد والنظام والعمل» إلى «الاشتراكية الديمقراطية التعاونية» إلى «الاشتراكية العربية» ثم «الاشتراكية العلمية» .

وهو بعد كل هذه المسيرة ـ التي أحرز فيها دون أدنى شك تقدماً فكرياً ضخماً ـ يقبل جزءاً من الماركسية ويرفض الجزء الآخر ، وهو ينتقي ما يشاء ويرفض ما يشاء .

وهو يرفض اسم «الماركسية» ويستخدم لفظ «الاشتراكية العلمية» ، بل إن بعض الناصريين يصمم على أن «الاشتراكية العلمية» شيء مختلف تماماً ـ بل ومناهض ـ للماركسية ، رغم أن اللفظين في كل قاموس مجرد اسمين لنظرية واحدة .

والدعوة «للاشتراكية العلمية» كانت تجري على قدم وساق بينما سجن ومطاردة «الاشتراكيين العلميين» كان يجري على قدم وساق أيضاً .

وهو في عملية انتقائه من «الماركسية» يحاول أن يقلم أظافرها بحيث تصبح لصالحه هو كبرجوازي صغير...

فهو يعترف بالصراع الطبقي كظاهرة موضوعية ، وحتمية لكنه يزعم القدرة على السيطرة عليه والتحكم فيه وسلبه صفته الطبقية ، ويستبدله بمحاولات لتذويب الفوارق بين الطبقات سلمياً .

وهو ينفي عن الماركسية محورها الأساس «دكتاتورية الطبقة العاملة» ويستبدلها بما أسمي «سلطة الشعب العامل» . ولعلنا لسنا بحاجة إلى الإفاضة فيما وصل إليه في الواقع تطبيق نظرية «سلطة الشعب العامل» هذه .

بل إن الكثيرين ـ من الناصريين أنفسهم ـ قد اعتبروا أن هذا الموقف من عبد الناصر ليس تقدماً ـ مطلقاً ـ نحو اليسار ، وإنما هو خطوة محددة ومحسوبة نحو اليسار كي تسد الطريق أمام الشيوعية...

وكثيراً ما كان المحيطون بعبد الناصر يرددون نقلاً عنه أنه قال لهم يوم أن أصدر قرارات التأميم المجيدة عام ١٩٦١... في معرض رده على مخاوف البعض منهم من التقارب مع الشيوعية «إنني أضع بذلك حاجزاً يمنع أي تقدم شيوعي لعشر سنوات قادمة» .

كذلك فإن بعض المحللين يحاولون الترويج لهذه الفكرة . يقول بيتر مانسفيلد «ومع اقتراب نهاية الفترة الثانية من حكم آيزنهاور توصلت الحكومة الأمريكية إلى نتيجة تقول أن عبد الناصر ليس فقط «غير» شيوعي وإنما هو أفضل «حاجز» ضد الشيوعية في الشرق الأوسط»[1]

---

1 - Peter Mansfield, Nasser's Egypt - P P 100.

لكنني لا أريد لذلك كله أن يشوه عظمة قرارات التأميم ، فسواء كذب هؤلاء الرواة أو صدقوا ، فإن عبد الناصر يقف بقرارات التأميم شامخاً كقمة في النضال الوطني والطبقي .

وليس من شك في أن خطوة التأميم قد أصبحت علامة طريق هامة بل وأساسية في المسار التاريخي المصري بأسره...

ذلك أنها قد نقلت الصراع الطبقي والسياسي في مصر إلى مرحلة كيفية ، ووجهت ضربة عنيفة لمراكز القوى الرأسمالية وإلى مستقبلها ، ومكّنت الطبقة العاملة من أن تتطلع بأمل نحو مستقبل متاح بالفعل تشرق في سمائه «مصر الاشتراكية» .

لكن ذلك كله لا يبعدنا عن التأمل في طبيعة الموقف الانتقائي تجاه النظرية الماركسية ، والذي أفرد صيغة هلامية يستطيع كل إنسان أن يقدم لها أي تفسير يريد...

فتحت رايات هذه الصيغة حوربت الشيوعية... ثم امتدت الأيدي لمصافحتها...

وتحت راياتها أيضاً هوجم الاتحاد السوفييتي ثم أحيط بهالات من الإعجاب والاكبار...

كل ذلك بغير منطق ، وبغير مبرر في بعض الأحيان...

وهكذا فإننا لا نستطيع أن نتلمس أية زاوية من زوايا صورة المثقف البرجوازي الصغير إلا ونشعر بالتعقيد والتناقض...

لكننا ، وما دمنا نتحدث عن الموقف النظري ، فإنه من المفيد أن نشير - إلى اعتقادنا - بأن المثقف البرجوازي الصغير ، الذي يتمسك بمبدأ واحد

هو مصلحته ، والذي يرفض التقيد بأية قواعد نظرية تقيد تطلعاته ، وإنما ينتقي ما يشاء ويرفض ما يشاء ، هذا المثقف البرجوازي الصغير لا يمكنه أن يبتعد كثيراً عن «البرجماتية» .

و«البرجماتية» فكرة أمريكية لعلها اخترعت خصيصاً لتلائم مزاج البرجوازية الصغيرة وأسلوب تفكيرها ، وهي تقوم على أساس أن كل ما هو ناجح... صحيح بالضرورة ، أو كما يقول المثل العامي المصري «اللي تغلب به العب به» .

ولنتأمل في شريط سريع كثيراً من الأحداث التي مرت بمصر لنرى عمق تأثرها بهذه الفكرة .

لكن «البرجماتية» لا تعمر طويلاً ، فلقد ينجح غير الصحيح مرة... ولقد ينجح مرات ، لكن ذلك ليس ـ في ذاته ـ دليلاً على صحته ، ذلك أنه سوف يفشل حتماً في نهاية الأمر .

والموقف الصحيح هو ألا نقيس الصحة بالنجاح وإنما أن نقيس النجاح بالصحة... والسبيل إلى النجاح الأكثر دواماً واستقراراً هو اللجوء إلى الموقف الصحيح وليس العكس .

لكننا نحيد ـ مرة أخرى ـ عن طريقنا...

فلنعد إلى مثقف البرجوازية الصغيرة...

وأعتقد أن صورته الآن برغم تعقيدات كل خط من خطوطها تبدو واضحة بعض الشيء .

* * *

لكن العلوم الاجتماعية لا تعرف الخانات القاطعة ولا التحديدات

الحاسمة ، فهي ليست كالرياضيات أو الكيمياء ، ففي العملية الكيميائية تستطيع أن تضع نقطة تدل على الانتهاء وعلى بدء شيء جديد ، نقطة تفصل هذا بالضبط عن ذاك ، أما في العلوم الاجتماعية فإن نقطة الانتهاء أو البدء تمتد كل منهما مطاطة بحيث تتداخلان معاً ، وبحيث يصعب أن نضع بالقلم أو المسطرة خطاً مستقيماً يفصل الطبقات الاجتماعية عن بعضها البعض فصلاً حاسماً... ذلك أن العلاقات والانتماءات الاجتماعية هي بذاتها علاقات وانتماءات مرنة ومتداخلة .

والسلم الاجتماعي أشبه بالحلزون تتداخل نهايات كل فئة منه مع بدايات الفئة التي تليها... وأنت لا تستطيع أن تمسك بالحلزون وتقول هنا تنتهي إحدى حلقاته وهنا تبتدئ الحلقة الأخرى...

وهكذا ففي «السلم الاجتماعي» ـ أو إن شئنا الدقة ـ في «الحلزون الاجتماعي» تتداخل قمم الفئات الدنيا مع مواطئ الفئات الأعلى...

ومن هنا فإن التحديد الأكثر دقة ـ في اعتقادنا ـ لضباط ثورة يوليو هو أنهم «مثقفون... عسكريون من أبناء الفئات العليا للبرجوازية الصغيرة ، والفئات الدنيا والوسطى من الطبقة المتوسطة» .

ثم نعود مرة أخرى فنحذر من أي تقسيم متعسف يقسم هؤلاء الضباط إلى «خانات» مختلفة وفقاً لانتماءاتهم الأسرية وحدها أو على أساس موقعهم في السلم الاجتماعي صعوداً وهبوطاً ، منكرين دور الانتماء السياسي والتكوين الفكري...

صحيح أن الوضع الطبقي هو العنصر الحاسم ـ بشكل عام ـ لكننا الآن أمام عينة محددة ، ومحدودة العدد ، ومتقاربة بل ومتداخلة من حيث مواقعها الاجتماعية والفروق التي يعكسها اختلاف الانتماء بين هذه الفئة أو تلك في

ظل الظروف الاجتماعية والمعيشية في مصر ليست بالجسيمة ، وهي لقلتها ـ وبالرغم من ضرورة وضعها في الاعتبار ـ تسمح لعنصر الانتماء السياسي والفكري أن يلعب دوراً أكثر بروزاً... إلى حد ما .

ومن هنا فإن تقارب الأوضاع الاجتماعية لهذه العينة لم يمنع من تمايزها ـ على أساس الانتماء السياسي والفكري إلى اتجاهات مختلفة... يسار ناصري ، يسار ماركسي ، وسط ، يمين (تكنوقراط) ، يمين (ذو اتجاه اسلامي) .

لكن ضعف العمل السياسي بشكل عام ، وعدم راديكالية هذا الانتماء في بعض الأحيان ، وعجز الوعاء السياسي (الاتحاد القومي والاتحاد الاشتراكي بمراحلهما المختلفة) عن أن يكون ميداناً صحيحاً لتصارعات العمل السياسي والفكري... وقبل ذلك كله ، حرص عبد الناصر الشديد وحذره من أن يفلت من بين يديه أي خيط من الخيوط القابلة للحركة ، وتعمده الإبقاء على التناقضات بين هذه الانتماءات مع عدم السماح لها بأن تعبر عن نفسها تعبيراً صحياً ، ورفضه الصارم لأن تتحول هذه الانتماءات إلى محاور للعمل السياسي الجماهيري ، كل ذلك قد شلّ قدرة هذه الأجنحة عن أن تتحول إلى أوعية سياسية منظمة أو منتظمة .

ذلك أن النظام المتبع كان يسمح للأجنحة بأن تتواجد ، لأن الصراعات فيما بينها تستغرق الكثير من جهدها وتنهكها ومن ثم يزداد القائد قوة وتحكماً وتزداد قدرته على استخدام الأجنحة والتلاعب بها ، لكن التصفية الحاسمة كانت مصير أية محاولة تجسر على أن تخلق من هذا الانتماء أو ذاك ـ يميناً أو يساراً ـ منطلقاً لعمل سياسي جاد .

ولست أعتقد أنني بحاجة إلى سرد أمثلة يعرفها الجميع...

كذلك فإن انتشار ما يمكن تسميته بروح الاستهتار في عملية الانتماء السياسي ، وعدم راديكاليته قد خلقت مناخاً غير صحي وحولت هذه الانتماءات المختلفة إلى شلل غير سياسية تحكمها أحياناً الانتماءات السابقة إلى أسلحة الجيش المختلفة إبان الخدمة العسكرية (مجموعة الفرسان ـ مجموعة المدفعية ـ مجموع سلاح خدمة الجيش... الخ) وأحياناً أخرى الارتباطات الشخصية والاستلطاف وغير ذلك من العوامل غير الموضوعية وغير السياسية .

وهكذا فإن هذا التمايز في الموقف السياسي والذي كان من المعتقد أنه بادرة صحية وموضوعية قد تحول إلى شلل غير سياسية ، تحكمها أهواء ونوازع شخصية ، وتتم التصارعات والمصالحات فيما بينها على أساس شخصي بحت .

ومن ثم فقد تمكن «القائد» من أن يتلاعب بهذه الشلل . وأن يضربها بعضها ببعض ، مانحاً لنفسه بذلك حرية كبيرة في الحركة وقدرة هائلة على المناورة...

وكسب هو... وكسب بعض أعضاء هذه الشلل . لكن العمل السياسي خسر الكثير ... وخسرت مصر هي الأخرى الكثير .

عبد الناصر... مصر والمصريون

عندما خطى فاروق آخر خطواته تاركاً مصر ، واضعاً عصا الأدميرالية تحت إبطه ـ لآخر مرة... التفت فجأة ـ وكأنه تذكر شيئاً ـ ووجه كلامه إلى محمد نجيب قائلاً : «تذكر يا سيادة اللواء أن حكم مصر ليس مسألة سهلة...» وتمتم مرة أخرى «ليس مسألة سهلة» وصعد إلى غير رجعة .

وكان فاروق آخر عهد مصر بملوك الأسرة العلوية . أما أول عهدها بهم فقد كان على زمن محمد علي الذي قال عن مصر «إنها جنة الله في أرضه ، ولو منحني الله مائة حياة أخرى غير حياتي هذه لقدمتها جميعاً ثمناً كي أمتلك مصر» .

وكلاهما محق في قوله... فحكم مصر كان على الدوام مسألة صعبة ، بل وبالغة الصعوبة ، لكن كل الصعوبات تهون من أجل مصر .

* * *

ليس من شك في أن ضباط يوليو وعلى رأسهم عبد الناصر كانت تمر بخيالاتهم صورة «مصر» وهم يدبرون للإطاحة بالحكم الملكي . «مصر» ليس كمجرد «وطن» تولّه المصريون في حبه بصورة قد تبدو للغرباء مبالغاً فيها .

«وطن» تحدث عنه مصطفى كامل... بكل الحب «بلادي... بلادي ، لك حبي وفؤادي ، لك حياتي ووجودي ، لك دمي ونفسي ، لك عقلي ولساني ، لك حبي وجناني ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر...» وبكل الكبرياء «لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً» .

وإنما أيضاً كموقع وكموضع ، وكتاريخ بالغ الكثافة ، بالغ التعقيد ، وكشعب مسالم وديع بغير مناسبة ، ومتفجر ثائر بغير مناسبة أيضاً .

لا بد أنهم تأملوا هذه «الظاهرة» وهم يستعدون للوثوب إلى موقع السلطة فيها .

ولو أننا تخيلنا عبد الناصر «بطلاً» يقف خلف الكواليس متطلعاً إلى رقعة المسرح والديكور والفريق... متمعناً في ذلك كله استعداداً لأداء دور البطولة ، فأية خواطر يمكن أن تتدافع إلى ذهنه... ؟

لنحاول أن نتخيل هذا الشريط من الخواطر...

* * *

• يقول المقريزي عن مصر «مصر متوسطة الدنيا قد سلمت من حر الإقليم الأول والثاني ، ومن برد الإقليم السادس والسابع ، ووقعت في الإقليم الثالث فطاب هواؤها ، وضعف حرها ، وخف بردها ، وسلم أهلها»[1] .

• ويصفها بعض قدامى المؤرخين بأنها أرض المتناقضات .

ربما تحت تأثير التناقض الشديد بين الشريط الأخضر المليء بالحياة والصحراء القاحلة ، أو التناقض الصارخ بين عظمة مباني الآثار القديمة وتفاهة المسكن الريفي...

---

(١) ـ المقريزي ـ الخطط ـ الجزء الأول ـ ص ٤٠ .

● وأسماها البعض «أرض الطغيان» .

ذلك لأن كثيراً ممن حكموها في الماضي كانوا طغاة أو أشباه طغاة ، ربما لأن مصر بكل متناقضاتها ، وبكل عظمتها تغري حاكمها بأن يقبض بشدة كي لا تفلت من بين يديه .

● وقال عنها المتنبي :

وكم ذا بمصر من المضحكات

ولكنه ضحك كالبكا

وربما لم تكن هذه الكلمات مجرد تعبير شعري ، وإنما تعبير عن متناقضات عميقة أحس بها الشاعر واستخدم شاعريته في التعبير عنها...

● لكن أدق محاولة لتوصيف مصر ، كانت محاولة د . جمال حمدان :

«إننا إزاء حالة نادرة من الأقاليم والبلاد من حيث السمات والقسمات التي تجتمع فيها ، وكثير من هذه السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقاً فريداً فذاً حقيقة» .

فهي بطريقة ما تكاد تنتمي إلى كل مكان دون أن تكون هناك تماماً ، فهي بالجغرافيا تقع في أفريقيا ، ولكنها تمت أيضاً إلى آسيا بالتاريخ... هي هي في الصحراء وليست منها... فرعونية بالجد ولكنها عربية بالأب . ثم أنها بجسمها النهري قوة بر ، ولكنها بسواحلها قوة بحر . وتضع بذلك قدماً في الأرض وقدماً في الماء . وهي بجسمها النحيل تبدو مخلوقاً أقل من قوي . ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأساً أكثر من ضخم .

وهي بموقعها على خط التقسيم التاريخي بين الشرق والغرب تقع في الأول ولكنها تواجه الثاني وتكاد تراه عبر المتوسط . كما تمد يداً نحو

الشمال وأخرى نحو الجنوب . وهي توشك بعد هذا كله أن تكون مركزاً مشتركاً لثلاث دوائر مختلفة بحيث صارت مجمعاً لعوالم شتى ، فهي قلب العالم العربي وواسطة العالم الاسلامي ، وحجر الزاوية في العالم الأفريقي .

وإذا كان لهذا كله مغزى ، فهو ليس أنها تجمع بين الأضداد والمتناقضات وإنما أنها تجمع بين أطراف متعددة غنية ، وجوانب كثيرة خصبة ، وبين أبعاد وآفاق واسعة بصورة تؤكد فيها «ملكة الحد الأوسط» ، وتجعلها «سيدة الحلول الوسطى» . ولعل في هذه الموهبة الطبيعية سر بقائها وحيويتها على مر العصور ورغمها . إن مصر جغرافياً وتاريخياً «تطبيق عملي لمعادلة هيجل : تجمع بين الأطروحة» و«النقيض» في تركيب متزن أصيل .

ونحن لهذا لا نملك إلا أن نقول إننا كلما أمعنا تحليل شخصية مصر وتعمقناها استحال علينا أن نتحاشى هذا الانتهاء : وهي أنها «فلتة جغرافية» لا تتكرر في أي ركن من أركان العالم ، فالمكان ، الجغرافيا ـ كالتاريخ ـ لا يعيد نفسه أو تعيد نفسها ، تلك هي حقيقة عبقريتها الإقليمية»[1] .

ولست أملك سوى أن أطلب من القارئ أن يتأمل مثل هذه العبارات :

- مصر «بطريقة ما تكاد تنتمي إلى كل مكان... دون أن تكون هناك تماماً» .
- «هي بجسمها النحيل تبدو مخلوقاً أقل من قوي ، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأساً أكثر من ضخم» .
- «ملكة الحد الأوسط... سيدة الحلول الوسطى...» .

* * *

(١) ـ د . جمال حمدان ـ شخصية مصر ـ دراسة في عبقرية المكان ـ سلسلة كتاب الهلال ـ العدد ١٨٦ ـ يوليو ١٩٦٧ ـ ص ١٣ .

والحقيقة أن رسالة مصر قد تبدو ـ محيرة في بعض الأحيان ، فهي بالنسبة للدول الإسلامية... ليست أكبرها تعداداً ، ولا هي مهبط الرسالة الإسلامية ، ولا هي أول من دان بالإسلام . ولكنها مع ذلك استطاعت بحيوتها الفكرية وتراثها الثقافي العريق ، وقدرتها الفائقة على حفظ هذا التراث ، أن تغدو في مركز القيادة لكثير من الشعوب الإسلامية...

والأزهر لم يكن أول ولا آخر جامعة إسلامية تأسست ، لكنه ظل مع ذلك أعظم جامعة للدراسات الاسلامية ، وأصبحت أروقته مهبطاً لتلاميذ من كل أنحاء العالم الإسلامي ، وأصبحت دراساته ونظرياته وتقاليده محل احترام المسلمين جميعاً...

وهي بالنسبة للدول الأفريقية دولة تقع على حافة القارة ، ليست أفريقية بالعرق ولا بالدم ـ إلا في القليل النادر ـ ومع ذلك فقد استطاعت أن تؤدي رسالة أفريقية بالغة الأهمية ، وأصبحت القاهرة أملاً افريقياً يتطلع إليه مناضلو أفريقيا ، وأسهمت مصر بجهد يفوق طاقتها لدعم وتأييد حركات التحرر الأفريقية... وصارت القاهرة مقراً لممثلي معظم هذه الحركات ، فتحت صدرها لهم على اختلاف اتجاهاتهم...

وهي بالنسبة للعرب آخر من تقدم من الأقطار العربية إلى ميدان العروبة ، فلقد تحدث الكثيرون عن العروبة أملاً عذباً ، وحلماً ذهبياً . فما إن قالت مصر «أنا عربية» حتى استطاعت الفكرة أن تتخطى حاجزالأحلام الذهبية...

* * *

وتأمل الضابط الشاب رقعة المسرح ، وبقي عليه أن يتأمل الجمهور... الممثلين... المنشدين... والمتفرجين على السواء ، بقي عليه أن يتأمل إنسان مصر .

ولا بد لسـيدة الحلول الوسطى الذهبـيـة ، والتي تجـمع ين الأطروحـة والنقيض في تركيب متزن أصيل ، من أن تنتج شعباً فريداً .

ذلك الإنسـان الذي يسـتمـد ميـاه نيله ، وأصله وحيـاته من أفـريقيـا ، ويستلهم ثقافته ودياناته من آسيا ، ثم بعد هذا وذاك ، واقفاً على ضفاف البحر الأبيض المتوسط مصغياً باهتمام إلى تياراته ، متلقفاً كل نسمة ريح تأتي منه متأثراً بها ، محاولاً أن يؤثر فيها...

وكثيراً ما يصور البعض الإنسـان المصري في صورة خليط متنافر بين بقايا فرعونية ورومانية وفارسية وعربية وشركسية وتركية امتزجت معاً وأخرجت خليطاً غير متسق التركيب ، معقد التفاصيل .

وحتى عبد الناصر نفسه يعطي صورة قريبة الشبه من ذلك في كتابه « فلسفة الثورة » عندما يقول :

« وأنا أنظر أحياناً إلى أسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التي تعيش في العاصمة...

الأب ـ مثلاً ـ فلاح معمم من صميم الريف .

والأم سيدة منحدرة من أصل تركي .

وأبناء الأسرة في مدارس على النظام الإنجليزي .

وفتياتها في مدارس على النظام الفرنسي .

كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين .

أنظر إلى هذا وأحس في أعماقي بفهم للحيرة التي نقاسيها وللتخبط الذي يفترسنا... »[1] .

---

(١) ـ جمال عبد الناصر ـ فلسفة الثورة ـ سلسلة كتب قومية ـ ص ٤٦ .

وأنا أزعم أن تلك الأسرة التي تحدث عنها عبد الناصر ليست أسرة عادية ، بمعنى أنها ليست النموذج الذي يمكن تعميمه على ريف مصر .

إنها أسرة فلاح غني امتلك أرضاً وزوجة تركية الأصل ، وأرسل أبناءه إلى المدارس الإنجليزية وبناته إلى المدارس الفرنسية... إنها صورة نظر إليها عبد الناصر عندما أطل من شرفة منزله وهو ضابط يقطن في حي راق... صورة في مستوى النظر وليس في عمق الأرض المصرية...

فلقد توافدت إلى مصر مواكب من الغزاة... ابتداءً من الهكسوس حتى العثمانيين... أقاموا واستقروا وتزاوجوا وأنجبوا... لكن ذلك كله كان يجري على السطح بين الأغنياء وبعضهم البعض...

ولقد اشترى أغنياء مصر واقتنوا آلافاً من الجواري الشركسيات والبلقانيات والفارسيات وأنجبوا منهن أجيالاً حسنة النسل ذات بشرة بيضاء وشعر أصفر وعيون ملونة... لكن ذلك كله كان على السطح وبين الأثرياء وحدهم .

ولعل مصر هي وحدها بين بلدان العالم التي يمكن أن يتخذ فيها لون البشرة والشعر والعينين ـ إلى حد ما ـ تعبيراً عن الانتساب الطبقي .

ذلك أن التغيرات اللونية والتزاوج مع الموجات الوافدة أو المستوردة قد تم ـ في الغالب ـ في إطار الطبقات العليا في المجتمع ، وبعيداً ـ إلى حد كبير ـ عن الإنسان المصري العادي .

ويؤكد هذا الرأي الكثير من علماء السلالات . فيقول أحدهم «من الواضح أنه لم يكن هناك طوال الستة آلاف سنة الأخيرة أي تغير ملحوظ في جمهرة المصريين... فمصريو عصر الأسرات والفلاحون الذين نراهم يعملون اليوم في الحقول... من نمط واحد »[(١)]

---

(١) ـ أورده جمال حمدان . المرجع السابق . ص ٢٧ .

ويقول عالم آخر «لا بد أن تظل مصر القديمة أبرز مثال عرفه التاريخ حتى الآن ، لمنطقة معزولة طبيعياً أتيح فيها للأنماط الجنسية المحلية الأصيلة أن تمضي في طريقها لعدة آلاف من السنين دون أن تتأثر على الإطلاق بأية اتصالات أجنبية... إن التغيرات التي طرأت على النمط الجنسي في أي جزء من أوربا خلال السنوات الخمسمائة الأخيرة كانت أكبر بكثير من تلك التي طرأت في مصر خلال خمسة آلاف سنة» .

ويبدو ذلك الأمر غريباً ومثيراً في الوقت نفسه إلى الحد الذي دفع بعض الباحثين إلى القول... «والواقع أن من أطرف الحقائق الأنثروبولوجية هي بقاء أو ثبات Persistence النمط المصري عبر العصور ، فلم يكد يتحرك منذ آلاف السنين ، حتى أن بعض التماثيل الفرعونية من عصر الأهرامات حين كشفت في القرن الماضي تعرف الفلاحون وعمال الحفائر عليه كشبيه وممثل لبعض أفراد من بينهم»(١)

ولعل القصة الشهيرة لعمال التنقيب من أبناء الصعيد الذين صاحوا في دهشة عندما تكشفت الحفائر أمامهم عن تمثال لشخص يشبه لدرجة كبيرة شيخ بلدتهم ، حتى أن التمثال لا يزال حتى الآن محتفظاً باسم «شيخ البلد»... لعل هذه القصة كافية بذاتها على تأكيد هذه الحقيقة .

لكن ماذا يعني ذلك ؟

يعني أن الإنسان المصري... الفلاح المصري وابن البلد المصري قد حافظ دوماً على مكوناته العرقية والوجدانية ، وظل على الدوام معتبراً هذه التغيرات السلالية التي تطرأ على الأغنياء ، تغيرات لا تعنيه ، ولا تمسه .

---

(١) أورده د . جمال حمدان ـ المرجع السابق ص ٢٨ ، نقلاً عن :

H. Vallois, Races Humanies, Paris - 1948. P 40

وفي ظل المعارك الدامية بين المماليك كان المصريون يكتفون بإغلاق دكاكينهم واللجوء إلى منازلهم حتى ينتهي الصراع... ثم يعلن المنادي من فوق مآذن القاهرة أن مملوكاً سقط... وأن مملوكاً أتى...

ولقد ظلت هذه الحقيقة تلسع الجسد المصري وتؤرقه ، وتستثير فيه نخوة كامنة ترفض أي كيان غير مصري أصيل... ومن ثم فقد كان رفضها لفاروق ليس نابعاً فقط من كونه ملكاً إقطاعياً ، أو لأنه فاسد أو عميل للاستعمار ، وإنما أيضاً ـ وبالاضافة إلى كل ما سبق ـ لأنه من أصل تركي ... لأنه غير مصري . إلى درجة أن مظاهرات عام ١٩٥١ الصاخبة كانت تهتف في وجه فاروق « إلى أنقرة... إلى أنقرة » ذلك أن ذاكرة مصر لم تنس أن فاروق... مهما مضى الزمن هو من سلالة محمد علي الذي قدم من تركيا منذ أكثر من مائة عام .

ولقد أفاض الكثيرون من الكتاب المصريين في الحديث عن هذا الإحساس المصري بالغربة تجاه حكامهم لعل أشهرهم د . محمد حسين هيكل ود . طه حسين .

لكن الغريب في الأمر أن عبد الناصر كان يدرك ذلك هو أيضاً ومنذ اللحظة الأولى... حين قال :

« ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدئ ، في دراسة قصة كفاح شعبنا ، فإني سوف أقول مثلاً أن ثورة ٢٣ يوليو هي تحقيق للأمل الذي راود شعب مصر منذ بدأ في العصر الحديث يفكر في أن يكون حكمه بأيدي أبنائه ، وفي أن تكون له نفسه الكلمة العليا في مصيره »[1]

وهكذا فقد كانت الومضة الأولى في ثورة يوليو أنها عودة بمصر ـ بعد

---

(١) ـ جمال عبد الناصر ـ فلسفة الثورة ـ ص ٨ .

غيبة طويلة جداً ـ إلى أصحابها ، وفي ذلك وحده ما يكفي ليصنع هامات من المجد حول أصحابها... وفيه أيضاً ما يؤدي إلى تأثيرات شتى على مكوناتهم وتصرفاتهم وأساليبهم .

كان عبد الناصر مصرياً قحاً... وهذا يكفي .

وقد ترك ذلك الإحساس المترسب في نفسه بضرورة عودة مصر إلى أصحابها على منطلقاته وأساليبه بصمات ذات دلالة .

فقد كانت مصر تعاني ـ في ذلك الحين ـ من آلام عميقة ، كان اقتصادها كله ، كثير من أراضيها الزراعية ، والغالبية من تجارتها وصناعتها ، والكثير من المناصب الهامة وغير الهامة في شركاتها في أيدي الأجانب والمتمصرين .

ذلك إلى درجة أن قلب مدينة القاهرة كان حتى عام ١٩٥٢ يشهد معظم تعاملاته التجارية باللغات الأجنبية ، وتحمل معظم لافتاته أسماء أجنبية ، حتى أن أحد الصحفيين المصريين كتب مقالاً ـ قبل الثورة ـ يطالب فيه وزارة الخارجية المصرية بأن تفتح لها سفارة في مركز القاهرة التجاري باعتبار أنه منطقة غير مصرية .

وكان ذلك كله يحز في نفس المثقف المصري المتعطل بينما آلاف الوظائف يشغلها أجانب من أنصاف المتعلمين ، ويحز في نفس التاجر المصري المطحون بينما ملايين الجنيهات يكسبها تجار أجانب... وفي نفس الرأسمالي المصري ـ الى حد ما ـ لأنه يعاني من منافسة غير عادلة...

وجاء عبد الناصر ليجسد كل ذلك الألم... ويحوله إلى رفض ، ليس لأنه قد اتخذ قراراً بذلك ولكن لأن :

«هذه البذور ولدت في أعماقنا حين ولدنا ، وأنها كانت أملاً مكبوتاً خلقه في وجداننا جيل سبقنا»[1]

هكذا عبر عن هذا الإحساس وجسّده في مواقفه بعد الثورة .

* * *

منذ حوالي مائة عام كتب ويلفريد بلنت يصف زعيماً مصرياً هو أحمد عرابي ، فقال :«إن عرابي نموذج للقائد الفلاح (يقصد المصري ، فقد اصطلح الأجانب ـ في ذلك الوقت ـ على إطلاق تسمية الفلاحين على المصريين)... طويل ، عريض المنكبين بطيء الحركة نوعاً ما ، يشبه في مشيته مشايخ البلاد ، أسمر الوجه الى الحد الذي كان يجعل الأتراك ينفرون منه ، نظراته قد تبدو جامدة ، وقد تبدو حالمة ، لكنه كان مبتسماً على الدوام ، وما أن يتكلم حتى يكتشف الإنسان ذكاءه»[2] .

أما نينيت فقد حاول بدوره أن يصف عرابي... فقال :

«إن عرابي ليس مجرد قائد للفلاحين (المصريين) ، لكنه قطعة مجسدة من ذلك الطمي الأسمر الذي يحمله النيل»[2]

وتمضي مائة سنة ، وتختلف الظروف والملابسات ، وتختلف المكونات الشخصية والثقافية والاجتماعية للإنسان المصري ، ومع ذلك يبدو أن صورة الزعيم الذي كانت تطمح إليه مصر تبدو متماثلة...

وكان كل ذلك يعتمل في وجدان عبد الناصر... وكان نداؤه ، «ارفع رأسك يا أخي ، فقد مضى عهد الاستعباد» .

---

(١) ـ فلسفة الثورة ـ ص ١٥

2- Wilfrid Blunt - Secret History of The English Occupation of Egypt - London, 1907, P 139.

2 - Ibid P. 281

وأود في البداية أن أعترف أن هذا الشعار قد بدا ساذجاً في نظر الكثيرين الذين لم يعيروه اهتماماً كافياً ، واعتبروه واحداً من تلك الشعارات المخصصة للاستهلاك العام والتي لا تحمل مضموناً جاداً مثل «الاتحاد والنظام والعمل» أو مثل «أ . م . ب» أي (اخرجوا من بلادنا) الخ .

لكن الحقائق تؤكد أنه كان شعاراً مختلفاً تمام الاختلاف .

«ارفع رأسك يا أخي» .

صيحة تمس قلب الفلاح المنكفئ على فأسه ، المحني الظهر دوماً ، المجبر أبداً على هذا الانحناء .

ولقد مسّ هذا الشعار قلوب المصريين حقيقة ، ولا يزال الكثيرون ، من الفلاحين خاصة ، يرددونه كلما واجهوا محاولة لاغتصاب حق من حقوقهم ، أو كلما أحسوا برغبة في الكبرياء أو في التحفز .

ولقد كان هذا الشعار تعبيراً عميق الدلالة عن ارتباط عبد الناصر بالوجدان المصري .

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة...

فالمصري لم يكن يريد فقط أن يرفع رأسه ، وإنما كان يحلم حلماً طموحاً لمصر... مصر العظيمة التي قرأ عنها في كتب التاريخ إن كان متعلماً ، أو التي سمع عنها في قصص الآباء وأساطير الأجداد إن لم يكن متعلماً .

«مصر أم الدنيا» هذه ـ كما يسمونها ـ في أي طريق يقودها ذلك الشاب المصري الصميم القادم من أعماق قلب مصر... عبد الناصر... ؟

مصر التي كان شبابها من جيل عبد الناصر ، وما قبله ، ثم ما بعده ، يقفون صفوفاً ينشدون في حماس بالغ ، وإيمان عميق :

أنا مـــــصـــــري بـنـانـي مـن بـنـى
هـرم الـدهـر الذي أعـــيـــا الـفـنـا
وقــفــة الأهرام فــيــمــا بيننا
لصــروف الدهـر وقــفــتي أنـا

مصر لم تكن بحاجة فقط إلى من يمسح بالزيت على جراحها العميقة ، وإنما إلى من ينهض بها لتقف عملاقة شامخة...

ولعل أعظم أمجاد عبد الناصر أنه قد أدرك أن العظمة الحقيقية لمصر تكمن في أنها تستطيع ، بل ويجب ، أن تكون قلعة للقوى التحررية في منطقة شاسعة من العالم ، وأن تصبح نقطة من نقاط الصدام مع الاستعمار العالمي .

وهكذا... وعبر طريق شاق ومرير قاد عبد الناصر مصر لتصبح بالفعل واحدة من أهم المواقع العالمية في المعركة ضد الاستعمار والإمبريالية ، ليس في البلاد العربية فحسب ولا في أفريقيا فقط ، وإنما امتدت رقعة اهتماماتها بالمعركة العالمية ضد الاستعمار لتصل بعيداً إلى قلب آسيا وأطرافها ، وإلى شواطئ أمريكا اللاتينية وجبالها...

كانت هذه هي اللمحة العبقرية في فكر عبد الناصر .

العظمة المصرية طريقها هو النضال ضد الاستعمار ، ومساندة حركات التحرر الوطني في العالم أجمع...

وفتحت القاهرة ذراعيها لعشرات من ممثلي حركات التحرر في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وقدمت لهم عوناً قد يكون أكبر من طاقتها كدولة نامية لكنها حققت بذلك لنفسها وجوداً جديداً وثقلاً دولياً وعربياً وأفريقياً مرموقاً...

«ارفع رأسك يا أخي»

وتحررت مصر من الاستعمار وطردت الانجليز .

«ارفع رأسك يا أخي»

وأممت القناة ، وهُزم العدوان الثلاثي .

«ارفع رأسك يا أخي»

وكانت معركة التمصير... وتصفية المواقع الأجنبية في الاقتصاد المصري .

وهكذا اختفت اللافتات الأجنبية من واجهة الاقتصاد المصري . ولم تعد مصر بحاجة إلى سفارة لها في مركز الحي التجاري بالقاهرة .

إن عبد الناصر ، الذي لمس الجرح في قلب الانسان المصري ، استطاع أن يرد له بعضاً مما عانى من فقدانه ، واستطاع بذلك أن يكسب إلى صفه كل الذين استطاعوا أن يرفعوا رؤوسهم...

وربما كان عبد الناصر يجنح في بداية أيامه ، إلى ضرب الاحتلال وتصفية مواقع الأجانب فحسب دون أي تطوير اجتماعي لهذا الموقف . لكن «أصالته» كمصري جعلته يتباعد سريعاً عن تلك الطبقات التي كانت بسبب ثرائها غريبة عن مصر وشعبها .

ولقد لمسنا هذا الموضوع من قبل . قلنا أن الأغنياء وحدهم قد تأثروا ـ حتى من الناحية العرقية ـ بالأجانب ، ولقد كان ثراؤهم ـ على الدوام ـ معبراً إلى ارتمائهم في أحضان الاحتلال .

ومنذ أن دخلت جيوش الاحتلال الإنجليزي مصر ، ووقف الإقطاعيون المصريون صفوفاً تحت قيادة سلطان باشا كحرس شرف للقوات الغازية ،

منذ ذلك الحين وكبار الملاك المصريين ظلوا يقبضون ثمن خيانتهم أرضاً ونفوذاً ومناصب وسلطة...

ومنذ أن نشأت البرجوازية المصرية الكبيرة ، نشأت في أحضان رأس المال الأجنبي أو المتمصر وفي مشاركة معه... وإذا ما تناقضت معه فإنما تتناقض بحثاً عن مزيد من الفُتات لنفسها من تلك الصفقة التي يغتال هو معظمها .

وقد أدرك ضباط يوليو هذه الحقيقة منذ الوهلة الأولى بالنسبة لكبار الملاك العقاريين فقد كانت حالتهم صارخة وولاؤهم للاستعمار عبر مراحل تاريخ مصر الحديث كله...

ولم يكن من السهل كما قال عبد الناصر أن يضرب الاستعمار بغير أن تصفى قواعده في الداخل .

أما البرجوازيون الكبار فقد ظل ضباط يوليو يعلقون عليهم ـ لبعض الوقت ـ آمالاً في أن يسهموا في تصنيع مصر ، وبناء مصر...

لكن هذه الهدنة لم يطل أمدها ، ولم يكن من الممكن أن يطول أمدها .

فكبار الملاك العقاريين كانوا بشكل أو بآخر مساهمين في الشركات الصناعية والتجارية والبنوك ، هذه مسألة غريبة ، لكنها كانت في مصر حقيقة واقعة... فثمة عوامل عديدة جعلت كبار الملاك العقاريين يتجهون ببعض استثماراتهم نحو المدينة ونحو الصناعة... وثمة عوامل أخرى عديدة جعلت كبار الرأسماليين يجنحون بجزء من تراكماتهم لشراء أراض زراعية .

والنتيجة... أن أسماء مثل البدراوي وسراج الدين والطرزي وخشبة

وسيف النصر وعبد الغفار وغيرها من أسماء الأسر الاقطاعية الكبيرة التي خضعت لقانون الإصلاح الزراعي الأول كانت - وفي الوقت نفسه - ضمن قائمة كبار المستثمرين الصناعيين والمصرفيين .

وكان العكس صحيحاً أيضاً ، فإن أسماء مثل عبود وعلي الشمسي وعبد المقصود أحمد وغيرها من الأسماء التي لمعت في سوق الرأسمالية المصرية ، كانت مدرجة منذ الوهلة الأولى في قوائم الذين خضعوا لقانون الإصلاح الزراعي الأول .

وهكذا فإن الضربة التي كانت موجهة ضد كبار الملاك العقاريين ، قد وجهت أيضاً - وعن غير قصد - لكبار الرأسماليين الذين ابتلعوها في صمت وتظاهروا بالتعاون كسباً للوقت ، لكن ثقتهم بالنظام ، وعلاقاتهم به ، لم تكن غير ثقة العدو الذي يحاول عبثاً اخفاء عدائه ، والذي يسعى - كسباً للوقت - الى تفادي الصدام .

ومع ذلك - ولأسباب عديدة - أهمها الطبيعة الطبقية لمثقفي البرجوازية الصغيرة ، الذين كانوا ينظرون إلى رواد الصناعة المصرية كأبطال وطنيين يستحقون التمجيد ، ناظرين إلى ما شيدوه من مصانع وكأنها إبداع شخصي لهؤلاء الرأسماليين وكأنها بُنيت فقط من أجل النهوض بمصر وبناء صروح الصناعة في رباها ، ولم يستطيعوا - في هذه الأيام - أن يصلوا الى البعد الطبقي لعملية الاستغلال الرأسمالي... فقد ظلت الهدنة المؤقتة - أو المفتعلة - قائمة لبعض الوقت .

لكن الرأسمالية المصرية لم تكن تثق بهؤلاء الضباط الذين صادروا ملكياتها الزراعية وحلوا أحزابها السياسية ، وأبعدوها عن السلطة ، ثم مضوا يطالبونها - عبثاً - بأن تستثمر أموالها... لبناء مجد الوطن والنهوض به .

ولم يكن ذلك أمراً مفهوماً ولا متصوراً من جانب الرأسمالية المصرية الكبيرة التي أحجمت عن المساهمة في أية مشاريع اقتصادية للثورة... والتي تباعدت بنشاطها ورؤوس أموالها عن أي مجال اقتربت منه أصابع الثورة...

بل إنها فوق ذلك تناءت بتراكمات رؤوس أموالها عن أي استثمار ، حرصاً على هذه الأموال من أن تتعرض لانقضاض مفاجئ من الحكام...

كذلك فإننا يجب ألا ننسى أنه كان لكثير من هؤلاء الرأسماليين ارتباطهم ، وعلاقاتهم التقليدية مع الاستعمار .

يقول عبد الناصر عن مقابلة له مع أحمد عبود باشا أحد رواد الصناعة المصرية :

«شفت عبود... عبود كان بيقول يعني... أنت صغير يا جمال بيه... ما انتش عارف الإنجليز أبداً... دول بيدوخوا الدنيا... إزاي حنقف ضد الإنجليز ، ما تنساش أن دول الإنجليز اللي كسبوا الحرب العالمية الثانية »[1]

ولم يكن من الممكن لمصري كعبد الناصر وقف في أكثر من مناسبة ليطلب من الإنجليز والأمريكان أن « يشربوا من البحر » « وإذا لم يكف ماء البحر المتوسط فهناك ماء البحر الأحمر »... وليعلن « أن حذاء كل شهيد مصري في اليمن أثمن من رأس ملكة انجلترا »... لم يكن من الممكن لمصري من هذا الصنف أن يقبل نصيحة عبود باشا...

وسارت الثورة في طريق التمايز عن الرأسمالية الكبيرة ثم ضربها...

وهكذا عبّر عبد الناصر عن نفسه كمصري ثوري أصيل .

---

(١) ـ جمال عبد الناصر ـ خطابه في اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية .

عبد الناصر.. والعرب

لست أريد أن أبالغ في دور عبد الناصر تجاه العرب ، لكنني أزعم أن مصر كانت قبل عهد عبد الناصر لا تتطلع كثيراً نحو العروبة...

ولن أحاول هنا أن أستعيد ذكريات قديمة عن قادة للبرجوازية المصرية رفضوا بإصرار كل يد عربية امتدت اليهم قائلين على لسان سعد زغلول «صفر + صفر = صفر» . والذين صمموا فقط على التطلع جنوباً نحو وحدة وادي النيل... أو التطلع إلى العمق نحو الفرعونية .

والغريب في الأمر أن اليسار المصري كان وحده الذي أدرك أهمية العمل لتوحيد الشعوب العربية في عمل نضالي ضد الاستعمار .

وعندما تأسست «العصبة العالمية للنضال ضد الإمبريالية» في عام ١٩٢٧ في بروكسل لعب اليسار المصري دوراً هاماً في محاولة نشيطة لتأسيس فروع لهذه العصبة في البلدان العربية ووضع خطة لتوحيد هذه الفروع ، وتكوين قيادة مركزية عربية لها ، يمكن أن يطلق عليها اسم «عصبة تحرير البلدان العربية» .

كذلك نوقش ـ في ذلك الحين ـ اقتراح بعقد مؤتمر عربي للنضال ضد الامبريالية في القاهرة[١] .

كذلك كان اليسار المصري هو أول من تنبه إلى خطر الحركة الصهيونية وحذّر منها . وتحدثت بياناته ومجلاته كثيراً عن ضرورة النضال ضد الصهيونية وعن رفض ادعاءاتها في فلسطين[٢] .

وفيما عدا ذلك ـ وباستثناءات قليلة ـ فإن البرجوازية المصرية قد حاولت جهودها أن تدير ظهر مصر للعرب .

وجاء عبد الناصر... وبعد تردد طويل خاض معركة العروبة واضعاً فيها كل ثقله وثقل زعامته... وكل ثقل مصر .

وأنا أزعم أن هذا الثقل المصري قد تمكن من أن يحدث تحولاً هائلاً في تعزيز فكرة القومية العربية وفي إكسابها مضمونٍ أكثر تقدمية وفي الاقتراب بها من دائرة الواقع .

لماذا... ؟

أولاً بسبب مصر... ودونما أية محاولة للمبالغة ، ودونما أي إحساس اقليمي ، أشعر أن مصر بثقلها قد استطاعت عندما اقتحمت ميدان العروبة... أن تقرب البعيد .

فالمصريون وحدهم ثلث العرب جميعاً (٣٣ مليوناً من مائة) «لكن مصر لا تستمد ثقلها من الحجم الخام وحده ، بل من تجانسها الشديد .

---

(١) ـ د . رفعت السعيد ـ اليسار المصري ١٩٢٥ ـ ١٩٤٠ ـ دار الطليعة بيروت ـ ص ٢٢٥ ـ نقلاً عن وثيقة لوزارة الخارجية البريطانية مودعة في المتحف البريطاني تحت رقم ١٠١ سري ـ بتاريخ ٢٦ ـ ٧ ـ ١٩٢٧ .

(٢) ـ راجع في هذا الصدد أعداد مجلة «الحساب» لعام ١٩٢٥ . وعلى سبيل المثال مقال «بلفور يزور ضحيته . وفلسطين تقابله بالإضراب العام» عدد أبريل ١٠ سنة ١٩٢٥ . لمزيد من التفاصيل راجع ـ د . رفعت السعيد ـ المرجع السابق ـ ص ١٥٣ وما بعدها .

فهي ليست حجراً ضخماً فقط ، بل إنها حجر وحيد... فوحدتها الجنسية واللغوية مطلقة ، وأقليتها الدينية تعد محدودة إذا قورنت ببعض البلاد العربية الأخرى ، وكل من الأغلبية والأقلية على حدة لا يعرف التشيع أو التشرذم الطائفي ، والكل يؤلف وحدة وطنية على درجة من التماسك في الوطن العربي »[١]

ولهذا فإن مصر باتجاهها العربي لا تستشعر حرجاً مثل ذلك الذي قد يستشعره السودان بسبب مشكلة الجنوب ، أو بلاد عربية أخرى بسبب وجود أقليات قومية غير عربية ذات ثقل...

وتتميز مصر بأنها دولة لا حدود لها مع غير العرب... وهذا العمق الجغرافي قد حمى تراثها العربي ، ومنحه سلامة وأمناً ومكّنه من أن يتفاعل دوماً مع العرب ومن خلالهم . ومكّن مصر أن تكون على الدوام الملجأ والملاذ للعرب..ابتداءً من ابن خلدون حتى مفكري الشام الذين وفدوا على مصر فراراً من الاستبداد العثماني ففتحت لهم مصر صدرها رحباً ، إلى الحجاج المغاربة الذين طالما قطعوا الطريق الطويل نحو مكة سعياً للحج وفي طريق عودتهم استراحوا بمصر ثم استقروا بها... إلى السودانيين الذين صعدوا إليها مع مياه النيل بحثاً عن العلم أو سعياً وراء تجارة... ثم أقاموا...

ولا بد لذلك كله من أن يترك آثاره على العلاقة المتبادلة بين مصر والعرب... وبين العرب ومصر .

ثم يأتي ثانياً دور عبد الناصر ، الذي تطلع حوله فأدرك ببصيرة نافذة الإمكانيات الهائلة الكامنة خلف تحرك موحد للعرب جميعاً . والذي استطاع أن يمزج مزجاً ثورياً بين عروبته وبين فهمه العميق لحقائق العصر ، فأدرك

---

(١) ـ د . جمال حمدان ـ المرجع السابق ـ ص ٢٣٧ .

أن المتنفس الصحيح والوحيد أمام الفكرة العربية هو في نضاليتها وثوريتها وقدرتها على التحرك في عمل مستمر ومتصل ضد الاستعمار والرجعية والتخلف ، ومن أجل تحرير العرب جميعاً... ومن أجل التقدم الاجتماعي لهم جميعاً...

والذي حاول أن يقيم على أرض مصر نموذجاً متقدماً ، أصبح في أحيان كثيرة عنصر جذب ومحط انتباه بالنسبة لكثير من الثوار العرب .

هكذا كانت البداية...

وما أن اجتاز الثقل المصري والناصري الميدان حتى اكتسبت دعوة القومية العربية فعالية مفاجئة ، ونشاطاً دافقاً في جنبات كل منطقة يعيش فيها إنسان عربي ، وتفجرت التحركات الثورية في كل مكان ، واستشعر العرب إحساساً عميقاً بوحدتهم في المعركة المصيرية ضد الاستعمار . ودارت ماكينة الإعلام المصري الجبارة لتقدم الشعارات ، وتبث الحماس وتلهب المشاعر .

وتأججت المنطقة العربية كلها بتحرك ثوري عارم .

ومدت مصر كلتا يديها إلى كثير من المناضلين العرب ، وساندت الكثير من التحركات والانتفاضات العربية ، وتحملت العبء كاملاً في ذلك ، بل لعلها ناءت بأكثر مما تستطيع من هذا العبء .

وأتى وقت من الزمن كان فيه المقاتلون المصريون يستشهدون على ربى اليمن ، والأسلحة المصرية والمدربون المصريون يتدفقون على عدن ومناطق عربية أخرى .

وقبلها كانت مصر تبذل كل طاقاتها وكل إمكانياتها من أجل ثوار

الجزائر ، معرضة نفسها بذلك إلى انتقام فرنسي تمثل في مشاركة فرنسا في العدوان الثلاثي على مصر .

وهكذا دفعت مصر ثمن عروبتها بالدم والجهد والمال والسلاح ، وسددت ضريبة العروبة بأرواح الآلاف من أبنائها ، وبامكانيات كثيرة إلى غير ما حد .

لكن التجربة ـ للأسف ـ لم تثمر الثمرة التي تليق بكل هذه التضحيات .

والمواطن المصري العادي يتأمل أحداث السنوات الماضية ويقول... ساعدنا اليمن ومات عدة آلاف من أبنائنا هناك ، وبذلنا هناك مالاً كثيراً وجهداً أكثر ثم خرجنا والكثيرون ينقمون علينا ، وساندنا الجزائر حتى استقلت ، ثم إذا بالأمور تنقلب ضدنا هناك ، وأيدنا عبد الكريم قاسم ثم إذا به عدو لنا ، واتحدنا ـ على غير حماس منا ـ مع سوريا في الوحدة الأولى ، فإذا بها تنفصل عنا... والسودان أيضاً ، ومآسي أخرى كثيرة .

ثم يمضي المواطن المصري في سلسلة تأملاته ، ويحاول أن يتلمس الأسباب...

والسبب ليس أخلاقياً بأي حال من الأحوال ، فالجهد المصري ليس منكوراً من أحد ، لكن القضية هي أن الناصرية برغم صحة توجهها الأساس نحو العروبة ، إلا أنها أخطأت في توجهها نحو الجماهير العربية...

ولنبدأ بالخطأ الأساس...

لقد أقام عبد الناصر نموذجاً من الحكم في مصر ، وبدا هذا النموذج ـ في بعض مراحله ـ وكأنه قد حقق نجاحات ساحقة ، واهتدى عبد الناصر بفكره إلى «أن كل ما هو ناجح هو صحيح » وطالما أن النموذج قد نجح نجاحاً سهلاً في مصر فلماذا لا ينجح ـ أو بدقة ـ لماذا لا يفرض على كل أرض عربية ؟

وهكذا اجتازت سلبيات الناصرية الحدود المصرية ، لتجد لنفسها مرتعاً خصباً في الأقطار العربية المختلفة .

وأدى ذلك إلى تناقضات عديدة...

فالقوى الناصرية ـ أو التي يفترض فيها أن تكون ناصرية ـ وهي قوى كانت في فترة من الزمن واسعة اتساعاً كاسحاً... كانت بالضرورة قوى جماهيرية تسعى لتنظيم نفسها وتعزيز مواقعها من خلال التحرك الجماهيري .

لكن الأسلوب الناصري يرفض «الكيانات التنظيمية» بالمعنى المفهوم للكلمة ، ويرفض الحركة الجماهيرية غير منضبطة الإيقاع .

ذلك أن الكيانات التنظيمية تفترض بالضرورة نقاشاً حراً ومفتوحاً ، وتفرز بالضرورة تساؤلات وانتقادات وإدانات من جانب القواعد ، وهذه كلها مسألة مرفوضة رفضاً قاطعاً من جانب عبد الناصر ، والتحرك الجماهيري ليس مجرد «بنج موضعي» يوضع هنا ويمنع هناك ، بل هو حركة حية تمتد بالضرورة لتؤثر في الجميع وليتأثر بها الجميع...

ومن هنا ، ولأن الناصرية رفضت أي تحرك جماهيري على أرض مصر فقد عجزت ـ في كثير من الأحيان ـ عن الاستمرار في تشجيع الحركة الجماهيرية على الأرض العربية خارج مصر...

ولقد بدا الأمر مضحكاً في بعض الأحيان... عندما كانت الناصرية تدعو الجماهير العربية إلى التحرك والتظاهر من أجل موقف ما ، ثم إذا بها تمنع التظاهر للسبب نفسه على أرضها...

ولقد حدث أن استنفرت الناصرية جماهيرها ـ من المحيط إلى الخليج ـ

للتظاهر احتجاجاً على طرد الملك حسين لحكومة سليمان النابلسي ، وعندما عقد طلاب جامعة القاهرة ـ مؤتمراً وليس مظاهرة ـ تضامناً مع الأهداف نفسها كان نصيبهم الفصل والتشريد...

بل لقد حدث عقب الغارة الإسرائيلية الوحشية على مصنع أبي زعبل أن قامت القاهرة بجهد خارجي مركز من أجل حملة استنكار عالمية لهذا القصف ، وأثمر الجهد عن اتفاق شامل بتحديد يوم عالمي للاحتجاج على هذا القصف تتوجه فيه مظاهرات في كل مدن العالم إلى السفارات الأمريكية احتجاجاً على تزويدها إسرائيل بطائرات الفانتوم... وتبنت قوى عالمية ضخمة هذا اليوم العالمي... وتحركت المظاهرات في كل أنحاء العالم لتحتج على ذبح العمال المصريين... أما عمال مصنع أبو زعبل أنفسهم ـ والذين سمعوا بأخبار المظاهرات الصاخبة تتردد عبر إذاعات العالم ـ فقد حاولوا المشاركة في هذا اليوم بمظاهرة احتجاج صامتة ، لكن قوات الأمن تصدت لهم غير مقدرة للجرح العميق الذي كان لا يزال يدمي قلوبهم... لماذا ؟ لأن المظاهرات ممنوعة في مصر... وهكذا بدا الأمر كله مثيراً للسخرية .

والحقيقة أن المنطلق الثوري الصحيح في التوجه الناصري نحو العرب ، قد فتح آفاقاً غير محدودة أمام الناصرية... لكن الناصرية لم تستطع مطلقاً أن تحرر نفسها من القيود التي كبلت بها يديها...

فهي ترفض الاعتماد على الجماهير في مصر ، وقد رفضت ذلك في اليمن بالطبع واكتفت بالاعتماد هناك ـ كما في مصر ـ على قوى تقبل أن تقول نعم بغير أن تفكر مطلقاً في قول لا... وهي بالضرورة قوى لا يمكن للجماهير ـ في أي مكان ـ أن تحترمها أو أن تلتف حولها .

ولقد استخدمت الناصرية كل ما في جعبتها من حيل وإمكانات لكسب

أو إسكات شيوخ القبائل اليمنية الرجعيين ، ابتداءً من الإغداق بأكوام الذهب (وأنا لا أستخدم الكلمة مجازاً ، فقد رفض شيوخ القبائل إلا أن يقبضوا ذهباً أصفر بالفعل)... إلى قصف نجوعهم وتجمعات قبائلهم بالقنابل ، لكنها لم تفكر ولو للحظة واحدة في أن تجرب الحل الأسهل ، الحل الأمثل ، بل وربما الحل الأوحد وهو حشد القوى الوطنية والثورية والتقدمية اليمنية وتعبئتها وتنظيمها من أجل يمن حر تقدمي... ولقد ظل هذا الحل متاحاً وممكناً لفترة طويلة من الزمن ، لكنه رفض باصرار من جانب عبد الناصر .

وعلى العكس من ذلك ، فقد كانت القوات المسلحة المصرية تواجه في بسالة مؤامرات اليمين الرجعي باليمن المتحالف مع السعودية والمستند إلى الاستعمار ، بينما كانت أجهزة الأمن المصرية باليمن تبطش بكل بادرة لتحرك ثوري أو تقدمي في اليمن .

وكانت النتيجة المنطقية أن يحسم الصراع في اليمن لصالح اليمن الرجعي...

أما في سوريا فقد كان الدرس من الوحدة الأولى أكثر مرارة وأشد قسوة...

وبدون ما حاجة إلى تحليلات يكفينا أن نتأمل كلمات عبد الناصر التي توجه بها في نقده الذاتي الشهير والوحيد إلى الأمة العربية في أعقاب الانفصال :

«... أبينا دائماً مهادنة الاستعمار ، ولكننا هادنا الرجعية ، لقد وقعنا ضحية وهم خطير ، اعتقدنا أنه على الرغم من الخلافات بيننا وبين الرجعية... أننا جميعاً أخوة مصير واحد ، لقد غيّر الاستعمار من أشكال مقاومته لنا ، أما نحن فلم نغير أساليب مقاومتنا له ، لقد قاومنا الأحلاف والقواعد بينما

تستر الاستعمار وراء الرجعية وتسلل الينا عبر قصور الرجعية... لقد سمحنا لأنفسنا بأن تخدعنا الرجعية»[1] .

ولقد كانت التجربة المصرية السورية غريبة بعض الشيء . فلأن عبد الناصر اشترط حل جميع الأحزاب في سوريا قبل الوحدة وكثمن لها (وهو شرط ظل على الدوام أحد المبادئ غير القابلة للنقاش) فقد بدأت الوحدة بتوجيه الضربات للشيوعيين الذين رفضوا حل حزبهم .

ثم ما لبث عبد الناصر أن أدرك أن البعثيين هم أيضاً لم يحلوا حزبهم وإن كانوا قد تظاهروا بذلك...

وما لبث البعثيون أن ضاقوا هم أيضاً بأساليب الاستبداد التي فرضتها «الأجهزة الناصرية» على سوريا...

وبدأ عبد الناصر في الاعتماد على عناصر مستقلة كانت في جملتها لا تمثل ثقلاً هاماً... وإنما كانت تقول له نعم ولا تقول غيرها .

وتصاعد في سوريا جو من الإرهاب لم تعرف له مثيلاً من قبل ، وكانت الأجهزة المصرية تلعب دوراً بالغ الخطر في استقطاب مناخ من العداء للناصرية...

وهكذا خسر عبد الناصر ـ فعلياً ـ تأييد ومساندة كل القوى اليسارية والتقدمية والكثير من القوى الوطنية الأخرى...

وفي هذه الأثناء وجهت ضربة التأميم... لتطيش بصواب الرجعية...

وقد شملت مراسيم التأميم في الإقليم السوري مؤسسات بلغت رؤوس أموالها ٢٨٠ مليون ليرة يمتلكها ٨٨٥ شخصاً ، منهم ٤٥٨ شخصاً تأثروا بتأميم البنوك ، ١٩ شخصاً بتأميم شركات التأمين ، ١٥٩ شخصاً بتأميم

---

(١) ـ من خطابه في ١٦ ـ ١٠ ـ ١٩٦١ .

الشركات الصناعية... وهؤلاء الصناعيون وحدهم بلغت رؤوس أموالهم المؤممة ١٠٠ مليون ليرة»[1] .

ومع ذلك فقد ظل عبد الناصر ماداً يده إلى اليمين ليتعاون معه .

وهنا تكمن عقدة الموقف...

فلقد كان من الطبيعي أن يتجه عبد الناصر ـ وخاصة بعد التأميمات ـ إلى اليسار ليتعاون معه ضد العدو الطبقي الذي أممت أمواله وأصبح بسبب التأميم عدواً مؤكداً بل وشديد الشراسة .

لكن اليسار يكوّن أحزاباً... والأحزاب ممنوعة .

وهكذا فإن الخوف من الأحزاب ومن الحركة الجماهيرية كان أقوى من الخوف من الرجعية... وهكذا أيضاً بقي في مواقع القيادة ـ تحت ظلال الوحدة... وفي ظل رايات التأميم ـ الرجعيون الذين أممت أموالهم وضربت مصالحهم الاقتصادية أمثال مأمون الكزبري وغيره ، بينما ظل اليسار مستبعداً ومطارداً ومتعرضاً لارهاب عنيف .

وكان طبيعياً هنا أيضاً أن يحسم الأمر لصالح اليمين ، وكان الانفصال .

ولقد كانت أخطاء «الأجهزة» المصرية في سوريا من البشاعة بحيث مرّ الانفصال دون معارضة من أحد... حتى من هؤلاء الذين استفادوا من الاجراءات الناصرية الثورية كالإصلاح الزراعي والتأميمات والمشاركة في الأرباح ومشاركة العمال في عضوية مجالس الإدارة... الخ .

وتبدو الصورة أكثر وضوحاً عندما نجد أن العمال الذين استقبلوا الانفصال في صمت ، قد تحركوا بشكل عنيف دفاعاً عن التأميمات...

وعندما بدأ البرلمان السوري في مناقشة سياسة وزارة الدواليبي

(١) ـ الحياة ـ اللبنانية ـ ٩ ـ ٨ ـ ١٩٦١ .

الاقتصادية ، واقتراحه بالغاء مراسيم يوليو ١٩٦١ ، تظاهر آلاف العمال في دمشق وحلب احتجاجاً .

ثم عاد عمال النسيج في حلب (٣٥٠٠ عامل) إلى الاضراب في يناير ١٩٦٢ ولم يعودوا للعمل إلا بعد أن أكدت لهم الحكومة عزمها على صيانة قرارات التأميم .

ولعل هذا المثال كافٍ ـ بذاته ـ لإيضاح مدى القوى التي كان من المفترض أن تتحرك لترفض الانفصال ، بل ولتمنعه ، لو أن «الأجهزة» الإرهابية قد أتاحت لها فرصة للتحرك أو فتحت أمامها طاقة ولو صغيرة من الأمل تجاه الناصرية...

وتمضي التجارب المؤلمة الواحدة تلو الأخرى...

ثم تأتي هزيمة يونيو ١٩٦٧ لتطفئ الكثير من بريق الدور الناصري .

فلقد أحس العرب بأنه كان من حقهم على مصر ـ بكل هذا الثقل الذي طالما تباهى به الكثيرون ـ وعلى عبد الناصر ـ بكل هذه الوعود التي قدمتها لهم أجهزة دعايته ـ أن يحقق لهم انتصاراً .

ومع الهزيمة بدأت التشققات تصيب الأقنعة ، وبدأت عيوب النموذج الناصري في الظهور...

ومع الهزيمة... ومع استمرار عدم القدرة على محو آثارها بدأت طوابير الناصريين العرب في الانسلاخ عنها... مكونين لأنفسهم كيانات مستقلة .

وعلى أية حال ، فقد ظلت الساحة العربية تموج لفترة طويلة بجيوش من الناصريين ، لكن تصميم الناصرية على فرض نموذجها غير المقبول ، نموذج التنظيم الوحيد غير الفعال وغير القادر على الحركة ، قد دفع الكثيرين إلى تنظيم أنفسهم تحت رايات أخرى... أو حتى تحت رايات ناصرية مستقلة هي في جوهرها تمرد على الفكرة الناصرية .

غير أن كل هذه التجارب المؤلمة لم تستطع أن تمحو التأثير الناصري على الساحة العربية... وإن كانت قد أضعفته...

وبرغم كل شيء ، فإن اسم عبد الناصر لا يزال يمتلك حتى الآن قدرة التأثير العاطفي في وجدان قوى واسعة من العرب .

ولا تزال صورة عبد الناصر كقائد عربي شجاع قاوم الاستعمار ، وتفرد بزعامة نادرة المثال وقوة تأثير إيجابي خارقة... تهز الكثير من المشاعر العربية .

لكننا وبغض النظر عن المشاعر وبغض النظر عن حسابات الكسب التي حققها عبد الناصر للعرب ، يتعين علينا أن نسأل أنفسنا ، كم فقدنا مما كان مقدراً لنا أن نكسب ؟... كم أضعنا من الفرص المتاحة أمامنا بسبب تصميم الناصرية على فرض وجهة نظرها في «التنظيم السياسي الوحيد غير الفعال» وتصميمها على تجاهل العمل الشعبي المنظم ورفضه ، واعتمادها على هؤلاء الذين لا يقولون لها غير نعم ، واستنادها إلى «أجهزة الأمن» للتعامل في ميدان السياسة ؟

كم أضعنا بسبب ذلك ؟

هل يملك الإنسان منا القدرة على تخيل الوضع العربي الآن ، لو أن الناصرية كانت قد توجهت بالفعل نحو الجماهير وسمحت لها بالعمل المنظم ، وهيأت لها فرص التحرك الإيجابي...

لو أن الناصرية لم تكن قد استندت في تعاملها مع العرب على «الأجهزة» التي أرهبت بأكثر مما كسبت ، والتي فرقت بأكثر مما وحدت...

لو أن الناصرية قد تعاونت بالفعل مع القادة الثوريين برغم صعوبة

التفاهم معهم... وليس مع من يسهل كسبهم لأنهم ليسوا شيئاً يُذكر...

لكن «لو أن» لن تفيد الآن غير مزيد من الألم ومزيد من العبر لمن يريد أن يستفيد منها...

ولم يعد أمامنا سوى أن نحاول من جديد ، متخلصين من أخطاء الماضي مستفيدين من إيجابياته وهي إيجابيات كثيرة بغير ما شك ، غنية بغير ما حد...

نعم للعمال والفلاحين... ولكن

لقد تفاخر عبد الناصر دوماً بأنه قد استطاع أن يعطي للعمال والفلاحين أكثر مما طالبوا به ، وقبل أن يطالبوا به...

وربما كان ذلك صحيحاً بعض الشيء ، وإن كان التعبير الأكثر دقة هو أنه استطاع أن يعطي لهم أكثر مما توقعوا منه أن يعطيهم ، وأنه أعطاهم إياه قبل أن تتحول مطالبتهم به إلى عمل جاد... وذلك كله في مجال محدد دون غيره .

بمعنى أنه قد استطاع - إلى حد ما - وفي زاوية محددة هي المطالب الاقتصادية والسياسية - في بعض جوانب منها - أن يحقق كثيراً من مطالبهم ، إصلاح زراعي ، حد أدني للأجور ، نقابات لعمال الزراعة ، تأمينات اجتماعية ، نسبة الـ ٥٠ بالمئة للعمال والفلاحين في الهيئات الشعبية المنتخبة ، التأمينات ، مشاركة العمال في الأرباح واشتراكهم في مجالس الإدارة... الخ .

لكنه أيضاً قد أخذ منهم الكثير وأعاقهم عن أن يتمتعوا بالكثير من حقوقهم...

ولنبدأ من البداية...

ولقد كانت البداية جد دامية ، فلقد جابهت حركة يوليو أول اضراب عمالي بعنف لم تشهد له مصر مثيلاً من قبل ، وأعدمت اثنين من العمال المضربين هما «خميس والبقري» .

وكان الإعدام إشهاراً لموقف سياسي ضد أي تحرك عمالي .

وإذا كان اللواء نجيب قد أعلن «لقد كان خميس شيوعياً فقتلناه» ، فإن ذلك قد جعل الجرح العميق في قلب الطبقة العاملة دامياً بمعنى الكلمة ، فقد كان خميس ـ بغض النظر عن موقفه السياسي ـ عاملاً مارس حقه المشروع في الإضراب فجوبه من السلطة أبشع مجابهة . وزاد من عمق الجرح أن العمال كانوا يشعرون أن طبقتهم هي الطبقة الوحيدة التي جوبهت بهذه المجابهة ، وأن الرجعيين ـ حتى الذين ناهضوا النظام منهم ـ عوملوا معاملة أكثر ليناً .

ويظل الجرح دامياً حتى مارس ١٩٥٤ عندما يستخدم عبد الناصر مأجوريه من الطبقة العاملة لتخرج هاتفة «تسقط الحرية» ويدرك العمال في مجموعهم أن هؤلاء الذين استأجرهم عبد الناصر غرباء عن صفوفهم .

ثم يبدأ الجرح في الاندمال...

ومع تصحيح المسار الاجتماعي والسياسي للثورة... يتصحح ـ إلى حد ما ـ الموقف من الطبقة العاملة...

والذي لا شك فيه أن العمال قد نالوا في الفترة التالية لعام ١٩٥٦ الكثير من المكاسب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبغير ما محاولة للإقلال من هذه المكاسب فإننا نود أن نشير إلى أن عيوباً بيروقراطية كثيرة ، يضاف اليها الافتقار إلى الديمقراطية في العمل السياسي والنقابي ، وإلى منع أي

تحرك جماهيري ولو إيجابي ما لم يكن خاضعاً للإشراف المطلق للأجهزة قد سلب الكثير من هذه المكاسب جانباً هاماً من فعاليتها .

ولسنا نريد الخوض هنا في استحواذ عنصر من الطبقة الوسطى على الحقوق الدستورية للعمال والفلاحين في نسبة الـ ٥٠ بالمئة فلهذا الحديث مجال آخر...

ولا نريد الإشارة إلى أن ممثلي العمال في مجالس الإدارة كانوا في أغلب الأحيان من غير العمال ، نظراً للتشويش المتعمد حول تعريف العامل ، والذي سمح حتى لبعض المديرين أن يستحوذوا على الأماكن المخصصة للعمال ، ولا إلى التأجيل المستمر لانتخابات ممثلين جدد للعمال في مجالس الإدارة... فهذه كلها مظاهر تفصيلية للخط العام الذي ساد العلاقة بين الناصرية وبين العمال كطبقة .

إن ما نريد التركيز عليه هنا... هو الخط العام للموقف من حركة الطبقة العاملة... كطبقة متميزة ومستقلة الحركة ، ولقد تأثر هذا الموقف ـ وكان لا بد له أن يتأثر ـ بعناصر أساسية ثلاثة :

- الطبيعة الطبقية للحكام كبرجوازيين صغار أو متوسطين ، وتأثير ذلك على موقفهم من العمال كطبقة متميزة الحركة ، متميزة المطالب والأهداف .
- موقفهم العدائي من كبار الملاك العقاريين وكبار الرأسماليين .
- طبيعة نظام الحكم الذي أقاموه وأسلوب هذا الحكم الذي يرفض أي عمل سياسي أو جماهيري غير خاضع خضوعاً مباشراً لإشراف السلطة .

ولقد انعكس تفاعل هذه العناصر الثلاثة على موقف السلطة تجاه الطبقة العاملة انعكاساً شديد الوضوح...

ذلك أن مجرد عداء النظام للرأسماليين الكبار وكبار الملاك العقاريين قد منحه أرضية واسعة لكسب جماهير غفيرة من العمال تأييداً لهذا الموقف ، ولقد كانت التأميمات بكل ما حملته من مغزى يعني تصفية العدو الأكبر للعمال تصفية اقتصادية وسياسية واجتماعية... ومغزى سياسي يعني استبعاد هذه العناصر من دائرة السلطة ومن مجال القدرة على التأثير فيها... ومغزى اجتماعي يعني في الممارسة اليومية ـ بالنسبة للعمال ـ شروطاً أفضل للعمل في ظل القطاع العام من حيث الأجر وساعات العمل وظروف العمل... كانت هذه التأميمات بالنسبة لجماهير العمال نقطة انطلاق نحو حياة أفضل...

كذلك فإن الإصلاحات العامة التي حققها النظام مثل مجانية التعليم بجميع مراحله والتأمينات الاجتماعية وتحسين وسائل العلاج الصحي المجاني وتخفيض إيجارات المساكن والإسكان الشعبي... الخ قد حظيت بمزيد من الإعجاب والتقدير من جانب جماهير العمال...

كذلك فقد اعترفت الثورة ـ بعد تردد ـ بعيد أول مايو كعيد رسمي وإجازة رسمية مدفوعة الأجر للعمال ، ووضع عبد الناصر تقليداً بأن يلقي خطاباً في هذا العيد من كل عام في جموع العمال .

لكن البرجوازية الصغيرة بإحساسها الطاغي بالتفوق على العمال ، رفضت رفضاً قاطعاً فكرة «سلطة العمال» واعتبرت أن مسألة إمكان وصول الطبقة العاملة إلى السلطة هي إحدى المسائل الخلافية الأساسية بينها وبين الماركسيين .

واستبدلت ذلك بعبارة عامة «سلطة الشعب العامل» التي لم تخرج ـ في التطبيق ـ عن سلطة فئات البرجوازية الصغيرة والوسطى .

ولسنا نريد أن نناقش هنا المدى الذي سمحت به الناصرية للعمال

بالمشاركة ـ سواء فعلياً أو حتى شكلياً ـ في السلطة ، فلذلك موضع آخر من الحديث ، لكننا نكتفي بأن نقول أنه لم يحدث أن سمحت الناصرية لعامل ـ حتى ولو لم يكن عاملاً حقيقياً ـ بأن يمسك بزمام منصب يؤهله للمشاركة مشاركة فعلية في السلطة .

فهي لم تسمح لعامل واحد أن يتواجد في اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي طوال فترة وجودها ، وذلك رغم النصوص الدستورية والقانونية التي تحفظ للعمال حقهم في نسبة الخمسين بالمائة .

وعندما أجريت انتخابات اللجنة التنفيذية العليا عام ١٩٦٨ تجرأ أحمد فهيم رئيس الاتحاد العام لنقابات العمال ووكيل مجلس الأمة في ذلك الحين على ترشيح نفسه ، لكنه أُسقط... أقول أُسقط لأن ضغوطاً عنيفة ـ وغير متصورة ـ وتعلميات صارمة قد صاحبت هذه الانتخابات وانتهت بفرض ثمانية أسماء ثم أملوها إملاءً على الناخبين الذين هُددوا صراحة بأن بطاقات الانتخابات ستحال إلى خبير الخطوط ، ليعرف اسم كل من يخالف التعليمات وصممت بطاقة الانتخابات بحيث يجبر الناخب ، على أن يكتب بخط يده الأسماء التي يختارها وبعد ذلك أجريت عملية الانتخابات .

وبغض النظر عن ذلك ، فإنه إذا جاز لنا أن نصدق الدستور والقانون الذي يشترط نسبة الخمسين بالمائة للعمال والفلاحين في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي ، فإن ذلك يعني أن هذه النسبة داخل اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي قد رفضت مبدأ اختيار عامل وحيد ـ هو رئيس الاتحاد العام للعمال ـ عضواً في اللجنة التنفيذية العليا...

أليس هذا مضحكاً... ؟

ولعله من المفيد هنا أن أورد لمحة عن حوار ـ وقع بالفعل ـ بين واحد ممن أُسقطوا في هذه الانتخابات وبين واحد ممن أُنتخبوا...

فالذي أُسقط تساءل لماذا أصدرتم تعليمات بإسقاطي ؟ هل لأنني لم أستأذن قبل ترشيح نفسي ؟

وكانت الإجابة «لا . لأن الاستئذان غير مطلوب وغير مرغوب فيه ، فهو في ذاته إحراج للسلطة» .

وتساءل الرجل في دهشة «إذن ماذا كان يجب عليّ أن أفعل ؟»

وكانت الاجابة بسيطة غاية البساطة «أن تبقى في منزلك ـ مثلما فعلت أنا ـ بجوار التليفون منتظراً التعليمات بأن ترشح نفسك ، ساعتها فقط تضمن نجاحك ، وإلا فلا داعي لأن تغامر...»

وعلى أية حال ، فلقد كان الخطر الأكبر في علاقة الناصرية بالطبقة العاملة يكمن في تصميم الناصرية على سد الطريق أمام أي تحرك سياسي أو تنظيمي أو جماهيري مستقل للطبقة العاملة... لقد نظرت الناصرية دوماً إلى العمال كخطر متفجر يحتاج باستمرار إلى يد تحكم عليه صمام الأمان .

وقد تمثل صمام الأمان في أحيان كثيرة ، في فرض قادة ـ غير عماليين بالمعنى الصحيح ـ على قيادة كل التنظيمات النقابية العمالية ، وفي إخضاع هذه التنظيمات إخضاعاً تاماً للسلطة .

وهكذا فقد التنظيم النقابي فعاليته وقدرته على حشد جموع العمال ، وتباعد العمال عنه وفقدوا الثقة به ، وأدركوا بوعيهم الطبقي المرهف أنهم يساقون إلى انتخابات تزيف إرادتهم وتسفر عن فرض ممثلين للسلطة وليس لهم ، فأداروا ظهرهم لكل ما يجري...

وهكذا نعود مرة أخرى إلى عنوان الموضوع «نعم... للعمال ولكن» نعم ... نعطيهم خبزاً أفضل ، أجراً أعلى ، شروطاً أحسن للعمل ، تعليماً مجانياً لأبنائهم .

نعم نعطيهم اهتماماً أكبر ، مشاركة في مجالس الإدارة ، مشاركة في الأرباح لأنهم أولاد طيبون يستحقون العطف ، أما في السياسة فهم خطر يتعين لجمه...

أما تطلعهم إلى المشاركة في السلطة فمسألة مرفوضة .

وأما حقهم في التنظيم السياسي المستقل فهو مرفوض ، وحقهم في التنظيم النقابي مقبول بشرط أن يظل هذا التنظيم تابعاً خاضعاً للسلطة غير قادر على أية حركة مستقلة...

نعم... ولكن .

هذا هو جوهر العلاقة بين السلطة والعمال...

ولكم أفسدت «لكن» هذه الكثير من إيجابيات نعم...

* * *

أما الفلاح... فقد بدأت الثورة نشاطها بالتوجه نحوه ، ومنحته الإصلاح الزراعي الذي يعني تحريره من الإقطاع ومنحه الأرض في آن واحد ، فكسبت الكثير الكثير من تأييده وحبه الحقيقي ، واجتاحت الريف المصري روح عاتية من الحماس الثوري ، لقد امتلك الفلاح أرضاً ، وأحس أن حلم القرون الطويلة المترسب في أعماقه جيلاً بعد جيل بأن يمتلك قطعة أرض لنفسه ، قد تحقق أخيراً...

وأصبح عبد الناصر بالنسبة للفلاح «بطلاً» أسطورياً وربما أكثر من ذلك . ولم يكن الفلاح المصري قد أحس بعد ـ إحساساً فعلياً ـ بأهمية قيامه بعمل سياسي مستقل ، لقد مارس السياسة أو بالدقة مارسوا السياسة باسمه عبر الأحزاب القديمة ، وقد رأى وأحس ماذا تعنيه هذه الأحزاب القديمة ،

وعانى من ذلك كثيراً... وأياً كانت أخطاء المحاولات السياسية للثورة ، فقد كانت بالنسبة له أفضل كثيراً جداً من القديم...

كذلك لم يكن للفلاح أية تنظيمات جماهيرية مستقلة ، ومن ثم فإن الثورة لم تأخذ منه شيئاً بهذا الصدد ، لكنها بهذا الصدد أيضاً ، لم تعطه شيئاً .

واختفت من الوجود صورة المالك الكبير الذي يمارس السياسة نيابة عن الجميع ، وبدأ الفلاح الغني في تولي زمام الأمور نيابة عن الجميع أيضاً ، لكنه تولاها وهو يعلن «أنه فلاح» وليس «سيداً» ، «أنه اشتراكي» وليس «إقطاعياً» وحتى لو كان الأمر مجرد كلمات تُقال ، فقد سركت هذه الكلمات أثراً بالغاً في تربة الريف المصري المشتاقة إلى الجديد .

ولم يبدأ التناقض الحاد إلا عندما أصبح الاتحاد الاشتراكي سلطة فعلية في الحياة اليومية ، وأصبح الفلاحون الأغنياء قادرين ـ من خلال تواجدهم على رأس تنظيمه في القرية والمركز والمحافظة ـ على تحقيق مكاسب ذاتية لهم ولأسرهم ، وعلى نهب حقوق الفلاحين بصورة منتظمة . وأحس الفلاحون أن مصالحهم تهدد من خلال هذا التنظيم ، وأن الأثرياء يزدادون ـ من خلاله أيضاً ـ ثراءً .

لكن الخطر الأكبر جاء من الجمعيات التعاونية الزراعية...

وعلى الورق كانت الصورة جميلة غاية في الجمال...

فالجمعية ـ وفقاً للقانون ـ يجب أن يكون ٨٠ بالمئة من أعضاء مجالس إدارتها ممن يملكون خمسة أفدنة فأقل ، وقد أنيط بها الكثير من المهام الحيوية التي تمس المصالح اليومية لحياة الفلاح المعيشية...

لكن غيبة العمل السياسي الواعي ، وتدخل التنظيم السياسي تدخلاً غير صحي لفرض رجاله في كل مكان ، ولحمايتهم حتى ولو أخطأوا وتغاضيه عن نهبهم لأرزاق الفلاحين ورفضه لأي شكل من أشكال الرقابة الشعبية على نشاط الجمعيات التعاونية ، وعدم وجود تنظيم حقيقي لصغار الفلاحين يدافع عن مصالحهم... كل هذه الأسباب قد أوقعت الصفقة كلها في أيدي أغنياء الفلاحين الذين لجؤوا إلى التزوير والتحايل وتهريب ملكياتهم تهريباً صورياً حتى تمكنوا من السيطرة سيطرة شبه تامة على مصائر هذه الجمعيات .

وعلى أية حال فلم يعد أغنياء الفلاحين بحاجة إلى التحايل فقد أتاح لهم التعديل الذي أدخل مؤخراً على قانون الجمعيات التعاونية الزراعية أن يسيطروا عليها هذه المرة ـ تحت حماية القانون...

وذلك كله بالاضافة إلى فساد عنصر الرقابة الإدارية ، وفساد أساليب تدخله ، بحيث أصبح هو بذاته عنصراً للإفساد والنهب ، وفوق ذلك كله عجز القوانين ـ حتى من حيث النص ـ عن حماية أموال الجمعيات التعاونية الزراعية ، إذ ظلت غير معترف بها كأموال عامة .

كل ذلك قد جعل من الجمعيات التعاونية الزراعية مجالاً لنهب قوت الفلاح الفقير وسرقته .

والخطير في الأمر أن الفساد كان مستشرياً في الشبكة التعاونية كلها ، بحيث إذا ما لجأ الفلاحون إلى أعلى وجدوا صداً وتواطؤاً ، فإذا ماحاولوا الاصلاح في موقعهم وجدوا عنتاً وتحدياً... وساد في المناخ العام إحساس مؤداه أن السرقة أمر مفروغ منه ، وأن نهب الفلاح وتزييف حساباته وسرقة نصيبه من البذور والكسب والأعلاف ، والمغالاة غير المعقولة في مصروفات الرش والوقاية... إن كل ذلك أمر مباح .

وتصاعدت شكاوى الفلاحين بغير أن يهتم بها أحد ، اتجهوا للتنظيم السياسي فلم يجدوا تجاوباً ، بل وربما وجدوا من بعض أعضائه انغماساً ومشاركة فيما يشكون منه ، واتجهوا إلى التنظيم التعاوني فلم ينالوا منه سوى إحساس بأن الكثيرين شركاء في اللعبة نفسها ثم اتجهوا إلى الحكومة بغير ما تجاوب منها... ثم إلى القانون فلم يجدوا نصاً...

وشعر الفلاح ـ وكان على حق في ذلك ـ أنه ّ ضحية لمؤامرة أكبر من أن تقاوم واكتفى بأن تباعد عن الايمان بأية كلمات تقال أو شعارات ترفع ، وعزل نفسه عزلة وجدانية عن كل ما يجري حوله .

لكنه وبرغم الشكاوى والمتاعب ظل يحفظ الجميل لعبد الناصر... له وحده .

فهو لم ينس له أنه ضرب المالك الكبير وأزاح قبضته عن رقبة القرية كلها... سكانها وأرضها واقتصادياتها...

ولم ينس له أنه حقق له حلم حياته بأن يمتلك قطعة أرض...

ولم ينس له أنه أتاح المدرسة ، بل والجامعة لابنه... كانت صورة النظام كلها باهتة في ذهنه ، لكن عبد الناصر ظل وحده متألقاً...

كان يدين الآخرين ويرفضهم ويلصق بهم كل معايب النظام ، حتى تلك التي كان عبد الناصر مسؤولاً عنها وحده... كل ذلك ليبقي عبد الناصر في خياله صورة للبطل الذي لا يُخطئ...

تماماً كما فعل آباؤهم من الفلاحين مع سعد زغلول... تراجع الوفد ، وتهادن وتسلق إلى قيادته انتهازيون ورجعيون... وتراجع سعد زغلول نفسه أحياناً ، لكن الفلاحين المصريين أبوا أن يتخلوا عن صورة البطل الذي قال للإنجليز... لا .

وظلوا حتى بعد وفاة سعد زغلول ، يذهبون إلى صناديق الانتخاب ليقولوا إنهم ينتخبون «سعد» .

* * *

ونعود مرة أخرى إلى... نعم ، ولكن...

فنقول إنها كانت بالنسبة لموقف الناصرية تجاه العمال والفلاحين مسألة منطقية ومتوقعة من نظام تسوده روح البرجوازية الصغيرة التي تنظر إلى العمال والفلاحين على أساس أنهم أناس قد يستحقون العطف ، لكنهم على أية حال لا يستحقون السلطة...

وفارق هائل بين استحقاق العطف واستحقاق السلطة...

فارق هائل بين الإيمان الثوري بحقوق العمال والفلاحين كقوى طليعية في حركة الثورة الاجتماعية وبين الإيمان الأخلاقي بضرورة منح العمال والفلاحين هذا الإصلاح أو ذاك .

وهكذا كان يتعين في كل علاقة بين «الناصرية» وجماهير العمال والفلاحين أن تقفز إلى الوجود كلمة... «ولكن» .

كذلك فإنه يتعين عليّ ـ ولكي أكون منصفاً ـ أن أسجل أن جموع العمال والفلاحين قد ظلت وحتى النهاية على وفائها للرجل الذي قال لها «نعم» بالرغم من كل صعوبات «ولكن» .

وإن جماهير العمال والفلاحين بالرغم من أنهم لم يتخيلوا يوماً أن عبد الناصر كان واحداً منهم ، أو ممثلاً لطبقتهم ، إلا أنهم شعروا بشكل عام وبشكل طاغٍ أنه كان أقرب من كل من حكموا مصر قبله إلى قلوبهم ووجدانهم...

يكفي أنه أول من قال لهم... نعم .

لا... للديمقراطية

لقد قال عبد الناصر نعم للكثير من الأشياء الإيجابية ، نعم للنضال ضد الاستعمار ، نعم للتقدم الاجتماعي ، نعم لتصفية كبار الملاك العقاريين وكبار الرأسماليين... الخ . لكن لماذا قال لا للديمقراطية ؟

هذا هو السؤال الكبير الذي حيّر الكثيرين...

والمشكلة ليست في أن البعض يهوى الديمقراطية أو يجد فيها مرفأً أمينا ، لكن القضية الخطيرة هي أن «لا» للديقمراطية قد أفسدت الكثير الكثير من إيجابيات نعم .

مرة أخرى نعود للسؤال الكبير... والإجابة - في اعتقادنا - ليست سهلة ، لكنها أيضاً ليست مستحيلة...

فلنحاول إذ ن...

هناك أولاً التراث التاريخي للنضال الديمقراطي في مصر وهو تراث محدود الأثر ، ومن ثم محدود التأثير على الامتداد التاريخي للعملية الاجتماعية .

فالمناضلون المصريون كتبوا كثيراً عن الديمقراطية ، والحرية ،

وحرية الصحافة ، وحرية الفكر والعقيدة ، ولقد نستطيع أن نحشد هنا عشرات وعشرات الأمثلة من نماذج تحريرية رائعة في الفكر الناضج والتقدمي لمفكرين ديمقراطيين تحدثوا عن الديمقراطية طويلاً... رفاعة الطهطاوي ، شبلي شميل ، النديم ، الكواكبي ، ولي الدين يكن ، فرح أنطون ، نقولا حداد...

لكن ذلك الحديث كان في مجموعه ممتزجاً بصبغة ليبرالية صارخة ، والليبرالية لا بأس بها في بعض الأحيان ، لكن إلى أين تقود ؟ بل وإلى أين قادت أصحابها... ؟

إن التركيبة الفكرية للمثقف البرجوازي المصري غريبة غاية الغرابة ، ولعلها نابعة من ذلك المزيج المعقد التركيب للتكوين الفكري المصري عامة .

فالمفكر البرجوازي في مصر ليبرالي بطبيعته ، يتحدث بل ويؤمن بحرية الرأي والفكر والاعتقاد ، وهو يخوض معركة ضارية ويتجاسر بتعريض نفسه لخسائر فادحة من أجل كلمة يريد أن يقولها في موضوع قد يكون غير ذي أهمية .

لكن كل هذه التهويمات في سماء الكلمات البراقة عن الحرية والديمقراطية لا تغير قيد شعرة من الموقف الاجتماعي الصارخ لصاحبها...

والأمثلة كثيرة... عندما تأسس الحزب الديمقراطي في مصر عام ١٩١٩ احتشد فيه الكثيرون من مثقفي البرجوازية ، بل ومثقفي الإقطاع جنباً إلى جنب مع المثقفين اليساريين الذين يمكن أن نسميهم تجاوزاً المثقفين الاشتراكيين ، احتشدوا جميعاً تحت رايات الليبرالية الجذابة... الحرية والديمقراطية للجميع .

لكن ماذا تعني كلمة الجميع ؟

هنا اختلفوا معاً وانشقوا وتسارع البعض أمثال هيكل ولطفي السيد إلى مواقفهم الطبقية يؤسسون حزباً لكبار الملاك العقاريين ويصممون على اختيار اسم ليبرالي صرف له «الأحرار الدستوريين»... لكن الغريب في الأمر أنهم واصلوا تحت راية هذا الحزب الرجعي ، الحديث عن حرية الفكر ، وحرية الاعتقاد . وكانت مجلتهم الأسبوعية «السياسة» نموذجاً حياً بل وصارخاً لهذا التناقض غير المفهوم ، فبعض صفحاتها هجوم وحشي على الحزب الاشتراكي المصري وعلى التجربة السوفييتية وصفحاتها الأخرى تمجيد للديمقراطية كفكرة وللحرية كأمل .

وهكذا فقدت الكلمة مدلولها ومعناها في وجدان الشعب المصري...

كان الشعب ـ ومن بينه هؤلاء الضباط الشبان ـ يدرك جيداً أن الشعارات سهلة والكلمات كثيراً ما تفقد معناها على أرض مصر من كثرة ترديدها وتداولها ، وأن الديمقراطية الحقة هي شيء آخر غير التشدق بالألفاظ...

ومن هنا كان إصرار عبد الناصر في الميثاق ، بل وقبل الميثاق على ما أسماه بالحرية الاجتماعية...

والحرية الاجتماعية هي الحل الأمثل بغير شك ، بشرط ألا ننظر إليها نظرة أحادية الجانب . الحرية بالنسبة للفلاح ليست مجرد حق التصويت في الانتخاب ، وإنما حقه في الأرض والخبز والعمل... ذلك الحق الذي يخلق إمكانية تصويته تصويتاً حراً في الانتخاب .

لكنه خطأ فادح ، بل خطأ قاتل أن نعطي للفلاح ـ نسبياً ـ الخبز والأرض والعمل وأن نسلب منه في الوقت نفسه حقه في التصويت الحر...

ذلك أننا نقع فيما هو أفدح من الخطأ ، فالفلاح المستعبَد لم يكن ليهتم كثيراً بصوته في الانتخابات ، بل لقد كان في كثير من الأحيان يلقيه أو «يبصقه» في صندوق الانتخاب لأي شخص ، فالجميع على السواء ملاك يستغلونه ويستحلون عرقه ودمه معاً سواء أكانوا وفديين أو دستوريين . لكنه كان كثيراً ما يطاوع ذلك الحنين الغلاب للتصويت للوفد لا لشيء إلا لأن سعد زغلول قد صوّر له في صورة البطل الذي قال لا للإنجليز يوماً ما .

بينما هذا الفلاح الذي حصل ـ نسبياً ـ على الخبز والأرض والعمل يعتقد بحقه في التصويت الحر ، ويصمم عليه ، ذلك أن التصويت الحر يمس حياته اليومية ويؤثر فيها . فالتصويت في انتخابات مجلس إدارة الجمعية التعاونية يعني اختيار أشخاص سيتحكمون في قوته اليومي ، تحت سوط الإرهاب أو التزييف ـ على قبول أشخاص بعينهم ـ كثيراً ما يكونون فاسدين أو غير أكفاء ـ يعني إجباره على أن يتسبب بيديه في خسارة جزء كبير من قوته اليومي... وهكذا فهي معركة حياة أو موت ، معركة خبز وعرق وليست مجرد «بصقة» في صندوق الانتخاب . ومن هنا كان افتقاد الحرية في الانتخابات في ظل الناصرية خطأً فادحاً بل وسبيلاً محتماً لعزلة الأجهزة السياسية والتشريعية عزلةً شبه تامة عن الجماهير .

ثم لنعد مرة أخرى إلى... لماذا ؟

ولنحاول المضي في البحث عن إجابة للسؤال الصعب...

فنجد هناك أيضاً أن التراث الحزبي في مصر لم يكن تراثاً مشجعاً... بل لعله كان مخيباً للآمال . فإذا ما طرحنا جانباً أحزاب الرجعية «الأحرار الدستوريين» و«السعديين» التي لم يكن لها أي نفوذ جماهيري ، وإذا طرحنا معها تلك الشوائب أو النتوءات التي برزت كالبثور في وجه مصر

لمجرد تبرير خيانة البعض مثل حزب «الاتحاد» وحزب «الشعب» .

فإننا نجد أنفسنا أمام الوفد... والوفد تراث نضالي ضد الاستعمار ، لكنه لم يكن حزباً بالمعنى المفهوم للكلمة . كان تجمعاً عفوياً للنضال ضد الاستعمار ، وقد تركزت كل مهارة سعد زغلول وعبقرية عبد الرحمن فهمي في إكساب هذه الحركة المناهضة للاستعمار إبان ثورة ١٩١٩ طابعاً حزبياً ، وربما ساعدت الانشقاقات التي قام بها الرجعيون على ذلك .

لكن الوفد لم يكن أبداً حزباً بالمعنى المفهوم للكلمة ، فلا بطاقات عضوية ولا حتى قوائم بالأعضاء ، مجرد لجان قيادية تتربع فوق تراث من المحبة الجماهيرية التي تجمعت خلف الوفد بمجرد وجدانها وإحساسها القومي المرهف بأنه أفضل من الآخرين ، لكنه وعلى أية حال لم يكن - وخاصة في أواخر أيامه - الحل الأمثل في نظر الجماهير .

ولقد ظل الوفد منبراً للعمل الأكثر تشدداً - نسبياً - ضد الاحتلال وضد السراي ، وقد أكسبه ذلك جماهيرية لم يحظ بها حزب سياسي في مصر...

لكن الجماهير التي منحت «حبها» للوفد صُدمت عشرات المرات ، فعتاة الرجعيين استطاعوا أن يتسلقوا إلى قمة الوفد ، وكان هذا طبيعياً طالما أنه لا برنامج اجتماعي على الاطلاق ولا حتى شعارات وأهداف متجددة متواكبة مع الأحداث وإنما مجرد شعارات عامة مبهمة مطاطة...

وهكذا وفي ظل هذه الخيمة الهائلة من الكلمات المطاطة والشعارات غير المخصبة تسلق الرجعيون... سراج الدين وأمثاله إلى قمة الوفد وأفسدوا الكثير من سمعته ومن ميراثه النضالي... كانوا في أغلب الأحيان ، إما «حكاماً» ، وإما في انتظار أن يصبحوا حكاماً ساعين إلى الحكم أو ممتطين صهوته ، ولا شيء غير ذلك .

والأحزاب الأخرى... «الحزب الوطني» مثلا بكل تراثه وميراثه من التضحيات وشعاراته الحاسمة القاطعة «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء»... وبالرايتين الخفاقتين دوماً في سمائه مصطفى كامل ومحمد فريد... ظل على الدوام أملاً لدى قلة من الشباب ، قلة... لأن كوادر الحزب لم تكن نشيطة ، ولأنها اكتفت بالشعارات الحاسمة واستراحت ، ولأن بعض شعاراته كانت تعزل الكثيرين عنه ، فالحزب كان يرى مثلاً أن التوظف بالحكومة في ظل الاحتلال يفسد الضمائر ويسحق النضالية ويجعل من الموظفين زمرة مطيعة خانعة ، ولربما تبلورت فلسفة الحزب هذه في كلمات حاسمة كنصل السكين الحاد صاح بها الشيخ عبد العزيز جاويش وهو يستقيل من وظيفته الحكومية «بعونك اللهم أستدبر حياة زادها الذل وخور العزيمة»... غير أنه في مجتمع مثل المجتمع المصري ذلك الحين كان من الصعب أن يطلب حزب من جماهيره الأساسية وهي الشباب المثقف من أبناء الطبقة الوسطى والبرجوازية الصغيرة أن تبتعد عن الوظيفة الحكومية ، ذلك أنه لم يكن ثمة مجال آخر للعمل ، وهكذا حكم الحزب على نفسه بالعزلة منذ السنوات الأولى لنشأته وهي السنوات التي كانت فيها فرصته السانحة كي يلعب دوراً مهماً... لكن كوادره هاجرت بحثاً عن عمل في الخارج ، وزعيم الحزب «محمد فريد» هاجر أيضاً حاكماً على نفسه بالعزلة عن شعبه بدلاً من سجن لمدة عام واحد هدده به الاحتلال وانتشر أبناء الحزب الوطني في كل أرجاء أوربا وتاهوا في الخضم الأوربي الهائل وتفرقوا... وانقسموا وتخاصموا ، وقامت ثورة ١٩١٩ وهم غرباء عنها ، وكتب فريد أنها «من الأمور التي كانت غير منتظرة» .

ومع ذلك استمر الحزب منبراً للوطنية الحقة ، وانتمى إليه شباب كثير في موجات متفرقة... تكلموا كثيراً وصاحوا كثيراً وعملوا قليلاً من أجل بناء حزب حقيقي... وفي بعض الدراسات الجادة سمّي الحزب الوطني «الحزب

الذي يثرثر كثيراً » ولم تكن هذه التسمية خطأً محضاً ، لكن ذلك كله لم يكن بأي حال من الأحوال لينفي عن أعضائه إخلاصهم ووفاءهم غير المحدود للوطن ، غير أنهم لم يكونوا أملاً جاداً بالنسبة لمصر .

والحزبيات الأخرى كانت أضعف من أن تجد أنصاراً حقيقيين واحتراماً حقيقياً ، مصر الفتاة التي تقلبت بين مختلف الاتجاهات ابتداءً من الإسلامية (الحزب الوطني الإسلامي ١٩٣٥) إلى مصر الفتاة ـ مرة أخرى ـ في ثياب تحاول التشبه بالنازية ، إلى الحزب الاشتراكي . ولم يكن ذلك التقلب بين مختلف الاتجاهات المتناقضة بقادر على كسب احترام أحد...

... ولم يكن الانتماء السياسي لحزب ما موقفاً راديكالياً مستمداً من اعتقاد بنظرية محددة ، ذلك أنه لم تكن هناك نظريات مختلفة وإنما مجرد مواقع حزبية مختلفة تمارس سياسات مختلفة حتى أنه يمكن القول أن شعب مصر لم يشهد طوال فترة ما قبل الثورة نوعاً من الانتماء السياسي الجاد والمنظم ، بمعنى الإيمان بمبدأ والسعي لإقراره والاستعداد للتضحية من أجله إلا في صفوف « الشيوعيين » و« الإخوان المسلمين »... وفيما عدا ذلك كانت السياسة في مصر وكما أسماها شعب مصر الذكي اللماح « بوليتيكا » وهي عبارة مرادفة للنصب والاحتيال .

ولقد أدى ذلك كله بالضباط الشبان إلى نبذ الحزبية وإلى معاداتها وإلى التمسك بفكرة أن يحكموا منفردين .

وقد مكّنهم ذلك كله أيضاً من أن يشنوا حملات ناجحة بالفعل ضد الحزبية والفساد الذي صاحبها وضد ساستها وقادتها ، وكان ذلك كله تمهيداً لاستئثارهم بالسلطة...

ثم نمضي في محاولة الإجابة على السؤال الكبير... ونجد هناك عاملاً

آخر هو «الطابع العسكري» لحكام يوليو... ولقد ترك ذلك الطابَع العسكري آثاراً شديدة الخطر على تصرفاتهم تجاه قضية الديمقراطية وتجاه تحديدهم لدور الجماهير والحركة الشعبية عموماً .

إن الانتفاضة السهلة التي حققت وثوبهم إلى السلطة دون معاناة تذكر قد جعلتهم يتوهمون ـ خطأ ـ انهم هم وحدهم صناع هذا الانتصار ، ذلك أنهم لم يستطيعوا أن يستخلصوا من سهولة الانتصار على النظام الملكي الرجعي إلا أنهم أقوياء والجماهير ضعيفة ، هم منظمون منضبطون انضباطاً دقيقاً والجماهير مفككة ، بينما الحقيقة هي أن الجماهير بكفاحها المتواصل والمستمر والمنظم هي التي هيأت الظروف والمناسبة وقوة الضربة... هي التي أضعفت هذا النظام الملكي الرجعي وعزلته وكشفته واستأصلت كل ما له من جذور... ثم استحثت الضباط الشبان على الإطاحة به...

إن نضالات العمال المصريين وإضراباتهم التي لم تنقطع أبداً ، إن انتفاضات الفلاحين المسلحة والدامية في بهوت وكفر البرامون وكفور نجم ، إ مظاهرات ١٩٤٦ الصاخبة والقيادة الواعية التي خلقت «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» كمنبر نضالي جديد متميز عن الأحزاب التقليدية... إن اقتحام فئات جديدة لميدان النضال الوطني والطبقي مثل إضراب ضباط البوليس والممرضين والمدرسين ، وقيام التنظيم السري للكونستبلات والتنظيم السري لصولات الجيش... إن كل ذلك قد وضع اللمسات الأخيرة في إنهاء هيبة النظام...

ثم كان المد الثوري العارم في عام ١٩٥١ حين أجبرت الجماهير الشعبية حكومة الوفد على الغاء معاهدة ١٩٣٦ واشتبك الفدائيون في معارك مسلحة مع قوات الاحتلال ، وانسحب العمال من معسكرات الإنجليز مضحين

بذلك بلقمة الخبز وبأجور ما كان لأمثالهم أن يحلموا بها... ضاربين بذلك المثل في التضحية أمام كل الجماهير الشعبية . وخاض جنود وضباط البوليس معركة شجاعة ضد قوات الاحتلال سقط فيها شهداء كثيرون... وتظاهر الألوف من جنود «بولكات النظام» مطالبين بالحرب ضد الإنجليز... وغصّت شوارع القاهرة وكل مدن وقرى مصر بمظاهرات صاخبة لم يسبق لها مثيل لا من حيث ضخامتها ، ولا من حيث تزايد دور اليسار فيها .

والتهبت مصر كلها... وتصدر اليسار المعركة مهيئاً مناخاً رائعاً للنضال الديقمراطي والتقدمي من أجل تغير جذري للأوضاع القائمة .

وقد وصف المعهد الملكي للشؤون الدولية في بريطانيا في كتاب أصدره عن الشرق الأوسط الوضع في مصر في فترة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ فقال :

«خلال هذه الفترة من حكم الوفد أصبحت المشاعر الوطنية كثيرة الارتباك(!) والمتحدثون باسم الحكومة ، وهم يروجون لسياسة معادية لبريطانيا انجرفوا نحو سياسة معادية للغرب ودعوا إلى الحياد بين كتلتي الشرق والغرب ، والمتطرفون اليساريون (الشيوعيون) يدعون بحرية إلى علاقات أوثق مع الكتلة السوفييتية . كذلك عمقت حركة السلام جذورها في البلاد ، وقفز توزيع ثلاث جرائد يسارية كانت تصدر آنذاك من مئات النسخ إلى عشرات الآلاف من النسخ ، وفقدت البلاد القيادة البناءة ، وكان من الصعب التحديد فيما إذا كان الوفد يقود البلاد ، أو أن البلاد هي التي تقود الوفد الذي أخذ ينجرف في تيار المشاعر المتطرفة» .

هكذا كانت مصر تسير في طريق النضال الصحيح وما كان حريق القاهرة وما أعقبه من أحداث سوى انحناءة لم تستطع أن تخفي ضعف النظام ولا هزاله أمام ضربات الجماهير الشعبية...

كل ذلك لم يكن مجرد «مقدمات» للثورة بلغة الأدب ، بل كان «أعمالاً تمهيدية» و«شروعاً في الثورة» بلغة القانون...

كذلك فإن الطبيعة العسكرية قد علمت هؤلاء الضباط الشبان أن النقاش مضيعة للوقت وأن العنصر الحاسم في المعركة هو «القرار» «الأمر المطاع» بشرط أن يكون القرار صحيحاً والأمر مناسباً .

هناك كذلك الطبيعة الطبقية لهؤلاء الضباط وهي الطبيعة التي ولدت فيهم التعالي على الطبقة العاملة والشعور بالسمو عليها... إن مثقفي البرجوازية الصغيرة لا يستغلون الطبقة العاملة ، بل لا يشعرون بالرغبة في استغلالها لكنهم ببساطة يحتقرونها...

ولسوف أكتفي بقصة وقعت بالفعل بكل تفاصيلها أرويها عن مصدر ثقة لا يتطرق إليه الشك .

... خلال عام ١٩٥١ حينما كانت مصر كلها تموج بالنشاط اليساري وعندما كان اليسار وقادته يتقدمون الصفوف ، طلب واحد من قادة الضباط الثوريين أن يرى واحداً من قادة اليسار أو بالدقة من قادة التنظيم الشيوعي «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» ورتّب الموعد والتقى الضابط مع الرفيق «بدر» سكرتير التنظيم في ذلك الحين...

وتألق بدر في عين الضابط الثائر مفكراً عميقاً وسياسياً بعيد النظر ، وخرج من المقابلة منبهراً متصوراً أن «بدر» أستاذ بالجامعة لا أقل من ذلك لكنه فجع عندما تلقى إجابة صاعقة أنه «عامل ميكانيكي»... وصاح الضابط الشاب في اشمئزاز «ميكانيكي» «أنا أقعد أتكلم مع ميكانيكي» والتفت إلى مرافقه «وأنت كيف تقبل وأنت رجل محترم أن يقودك ميكانيكي» .

ولعلي أكتفي بهذه القصة كدليل على موقف هذه الفئة من جماهير العمال

والفلاحين ، ذلك الموقف الذي تبلور في موقف حاسم يرفض فكرة «حكم العمال» وتبلور أيضاً في محاولة فرض قيادات برجوازية صغيرة محل القيادات العمالية الحقة .

بقي أن نقول أن الضابط الثوري الشاب... كان جمال عبد الناصر .

لكن التكوين المهني (العسكرية) والطبقي (برجوازيون صغار وفئات دنيا من البرجوازية المتوسطة) لم يؤد بأصحابه إلى مجرد احتقار العمال والفلاحين ، وإنما قادهم ومنذ البداية إلى المبالغة الشديدة في دورهم ، إلى تصورهم أنهم هم وحدهم منقذو مصر ، أنهم وحدهم وعلى مر أجيال عدة من قدموا لمصر شيئاً مثمراً ، والقانون السائد أن المبالغة في دور الفرد أو الجماعة الصغيرة العدد لا تعني في جوهر الأمر إلا الإقلال من دور الجماهير .

ولقد كان هذا الإقلال من دور الجماهير سمة أساسية في تفكير قائد ثورة يوليو أدت منذ البداية إلى ما يمكن وصفه ـ دون مبالغة ـ بأنه امتهان لثورية شعب مصر...

... ولنقرأ معاً ـ وبإمعان ـ هذه الكلمات :

«قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ـ وطلعت الطاغية ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير .

وطال انتظارها .

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر... ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال . كانت الجموع التي جاءت أشياعاً متفرقة وفلولاً متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس إلى الهدف الكبير وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر .

وساعتها أحسست وقلبي يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة أن مهمة الطليعة لم تنته في هذه الساعة ، وإنما من هذه الساعة بدأت .

كنا في حاجة إلى النظام ، فلم نجد وراءنا إلا الفوضى .

كنا في حاجة إلى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا إلا الخلاف .

وكنا في حاجة إلى العمل ، فلم نجد وراءنا إلا الخنوع والتكاسل...

ومن هنا وليس من أي شيء آخر أخذت الثورة شعارها » .

والكلمات لعبد الناصر... والكتاب هو فلسفة الثورة[1] .

ثم تمضي الكلمات لتصف شعب مصر فتقول :

«ولم نكن على استعداد ، وذهبنا نتلمس الرأي من ذوي الرأي ، والخبرة من أصحابها ، ومن سوء حظنا لم نعثر على شيء كثير .

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا إلى قتل رجل آخر .

وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا إلى هدم فكرة أخرى .

ولو أطعنا ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال ، وهدمنا جميع الأفكار ، ولما كان لنا بعدها ما نعمله إلا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس...

وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالألوف ومئات الألوف ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروي لنا حالات تستحق الإنصاف ، أو مظالم يجب أن يعود إليها العدل ، لكان الأمر منطقياً ومفهوماً ، ولكن معظم ما كان يرد إلينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام... كأن الثورة قامت لتكون سلاحاً في يد الحاقدين والمبغضين .

---

(١) ـ ص ٢٠ ـ سلسلة كتب قومية ـ العدد ٢٠٣ .

ولو أن أحداً سألني في تلك الأيام ما أعز أمانيك ؟ لقلت على الفور... أن أسمع مصرياً يقول كلمة إنصاف في حق مصري آخر » .

أية رؤية قاتمة كانت تقدمها ثورة يوليو لشعب مصر...

وبطبيعة الحال فإن النتيجة المنطقية لهذا الوصف هو أن يقول قائدها « إن مهمة الطليعة لم تنته في هذه الساعة ، وإنما من هذه الساعة بدأت » .

تلك هي القضية... أن يستمر هؤلاء في الحكم...

أن يستمروا في الحكم... لا بأس ، فلقد كان استمرارهم أمراً منطقياً ومقبولاً... بل وضرورياً . لكن الاستمرار في الحكم بمثل هذه الصورة القاتمة عن شعب مصر ، بمثل هذا التخيل لتاريخه النضالي . بمثل هذا التقييم لنضاليته يفتح الباب واسعاً ــ ولقد فتحه بالفعل واسعاً إلى أقصى مدى ـ أمام تجاهل الجماهير ، واحتقارقيمة حركتها وأمام التصور بأنه يمكن اصطناع هذه الحركة بقليل من الدعاية ، ثم بقليل من الحشد ، ثم بقليل من الترغيب أو ما هو أكثر من الترغيب .

ولقد عاشت مصر سنوات طويلة وهي تشهد حشوداً ومظاهرات مصطنعة . مرتبة . حسنة النظام . موحدة الهتاف . عالية الصوت ، لكنها خاوية تماماً في أعماقها ، تفتقد الحماس والوجدان...

ما من زعيم أو سياسي زار مصر إلا وحشدوا له ألوفاً مؤلفة... عمال مصانع أعطوهم إجازة مدفوعة الأجر ، وخمسة وعشرون قرشاً بدل تغذية ، وأحياناً فوق ذلك علبة من السجائر ، ثم يرصّونهم رصّاً على طول الطريق ويقف مقاولو الأنفار ، « مسؤلو وحدات الاتحاد الاشتراكي » ليلقنوهم الهتاف باسم الرجل القادم ، لا أحد فيهم سمع عنه... ربما ، لا أحد يعرف من أي بلد

أتى... ولا لماذا أتى ، لكنهم يقفون ، ويهتفون وفي أعماقهم تهكم صارخ على الرجل القادم ، وعلى «مقاولي الأنفار» وعلى كل «اللعبة» ويمر الموكب سريعاً... هتاف أو اثنين بصوت عال بعد انتظار لساعات طويلة... ثم يعودون يدخنون السجاير ويطلقون النكات على الجميع...

ولقد عاشت مصر سنوات طويلة يتصور فيها قادتها أن حركة الجموع «غير المنضبطة» خطر داهم يجب تجنبه ، وجموح غير مسموح به .

غير أن ذلك لا يعني على الإطلاق أن حكام يوليو كانوا بعيدين عن الشعب من حيث مطامحهم ونضالهم ، فإن كثيراً من قراراتهم كانت تستهدف تحقيق مصلحة الجماهير ، لكن التعالي على الجماهير كان يفترض أن تأتي مصلحتها من أعلى...

وإذا جاز لي التشبيه فإن الضابط الكفؤ ، المحب لجنوده ، المخلص لواجبه ، يقدم كل ما باستطاعته لهؤلاء الجنود... اهتماماً ومراعاة وحماية ، لكنه لا يسمح لجندي أن يعترض أو أن يخرق تعليماته ، أو أن يسأل كيف ؟ أو لماذا ؟ أو متى ؟ أو إلى أين ؟ بهذه العقلية أرادوا أن يقودوا شعباً بأسره ، يطعمونه أفضل... يمنحونه فرصاً للعمل أكثر ، يسنون له قوانين أحسن ، يدمرون المراكز الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لأعدائه الطبقيين ، كل ذلك دون أن يسمحوا لأي صوت أن يرتفع سائلاً كيف ؟ ـ لماذا ؟ ـ متى ؟ ـ إلى أين ؟ .

ولما كان القرار في غالب الأمر ثورياً وفي صالح الجماهير ، ولما كان انتظار الشكليات «البرلمانية» أو «التشريعية» قد يُعرقله أو يقلل من فعاليته ، أو يفوت فرصته في اقتناص الهدف ، فقد صور الحاكم لنفسه أنه بانفراده باتخاذ القرار الثوري دون مشاركة من أحد ، إنما يمارس نوعاً

جديداً من الديمقراطية طالما تفنن الكثيرون في امتداحه وفي الثناء عليه وفي البحث عن تسميات مغرية له .

صحيح ـ بغير ما شك ـ أن قرارات فرض الحراسة مثلاً لو عرضت على مجلس الأمة لعارضها البعض . والأهم من ذلك لضاعت قيمتها ، ذلك أن الذين فرضت عليهم الحراسة كانوا ـ بالضرورة ـ سينتهزون فرصة النقاش ليهرّبوا أموالهم... ولديهم في ذلك خيرات بغير حصر...

صحيح أيضاً ـ بغير ما شك ـ أنه لولا المباغتة في كثير من القرارات الثورية لفقدت القرارات جزءاً هاماً من قيمتها الفعلية .

وصحيح ثالثاً ـ بغير ما شك ـ أن عبد الناصر كان أكثر أجزاء نظامه تقدماً ، وأن كثيراً من قراراته لم يكن فقط مباغتاً لشركائه أو بعضهم... وإنما كان على غير هواهم أيضاً .

. كل ذلك صحيح ، لكن الشيء الذي فات عبد الناصر وفات الكثيرين معه ، أنه في التركيبة الاجتماعية المعقدة لمصر فإن «القرار الثوري» لم يكن كافياً وحده... ولكم عانى عمال مصر وفلاحوها من قرارات ثورية صدرت من أعلى تحف بها نوايا القائد الحسنة وأهدافه الخيرة ، لكنها وفي غيبة العمل الشعبي المنظم ، والحراسة الجماهيرية اليقظة فقدت معناها الحقيقي وتحولت إلى أدوات إثراء لعناصر معينة ، بل وتحولت في بعض الأحيان وفي يد هذه العناصر المعينة إلى سلاح ضد الجماهير ذاتها .

ولقد كان هذا التناقض واحداً من أشد التناقضات التي عانت منها «الناصرية» خطراً . فالحكام ثوريون... بغير عمل ثوري منظم وجماهيري... والحكام يستصدرون ـ بسهولة شديدة ـ قوانين وإجراءات وأحكاماً وشرائع

جيدة ، خيرة ، حسنة الهدف ، حسنة التصويب لكنها تطيش في أكثر الأحيان... ذلك أنها تطبق في غيبة الجماهير وفي غيبة حراستها اليقظة الواعية .

والمزيد من القرارات الثورية لم يغن مطلقاً عن حركة الجماهير المنظمة... لكن الحكام لا يريدون على الإطلاق أية حركة منظمة للجماهير الشعبية ، وعاشوا تناقضهم ، وأحسوا بيد ذلك التناقض تخنق الكثير من إنجازاتهم ، وحاولوا عبثاً... لكن دون جدوى ، ذلك أن تناقضهم وخشيتهم من حركة الجماهير الشعبية المنظمة... هذا التناقض كان أعمق من أن يجد لنفسه حلاً... حتى ولو اختنقت إنجازاتهم أمام أعينهم وبين أيديهم .

والنتيجة معروفة ـ على أية حال ـ ولست بحاجة إلى استفاضة في الحديث ، فالجمعيات التعاونية الزراعية التي كانت خطوة هامة والتي افترض فيها عند تأسيسها أن تكون مرحلة أولى نحو أسلوب أكثر جماعية في الزراعة ، هذه الجمعيات تحولت في غيبة الديمقراطية وفي غيبة الانتخاب الحر ، وفي غيبة الرقابة الشعبية إلى مباءة للفساد ، وإلى طريق سهل للإثراء غير المشروع...

ويصرخ الفلاحون وتتعالى أصواتهم ، ويبحث الحكام عن حل ، أي حل ما عدا الديمقراطية ، ويستصدرون قوانين باعتبار أموال هذه الجمعيات أموالاً عامة بهدف معاقبة سارقها عقاباً صارماً... ولم يكن ذلك حلاً... بل مجرد محاولة لتفادي الحل الصحيح الوحيد...

وكذلك الأمر في مختلف المجالات...

لكن المسألة لم تكن مجرد افتقاد للحراسة الشعبية على القرارات الثورية للحكام... بل كانت أعمق من ذلك بكثير .

ذلك أن الخوف من العمل الجماهيري المنظم ، ومن التحرك الطبقي الواعي قد جعلت عبد الناصر يرسم مخططاً محكماً من أجل التحكم في كل المنظمات الجماهيرية...

ولقد كان تواجد المنظمات الجماهيرية (اتحادات العمال والطلاب والشباب والنقابات العمالية والمهنية) مسألة ضرورية ، ذلك أن الحكام قد أدركوا أنهم ما لم يقيموها بأنفسهم فإنها ستقوم بمعزل عنهم ، خاصة وأن للنضال النقابي (العمالي والمهني) وللنضال الطلابي جذوراً وتقاليد عريقة في مصر .

وهكذا أقاموا هياكل ضخمة من التنظيمات... هياكل كانت قائمة في شموخ ولكنها خاوية من الداخل ، أفرغوها من كل مضمون نضالي وفرضوا عليها قيادات من أتباعهم فرضا ، تدخلوا في انتخاباتها باللين تارة وبالعنف تارة أخرى ، وعندما أقاموا في نهاية الأمر ما أسمي بالتنظيم الطليعي كجهاز سري داخل الاتحاد الاشتراكي ، كان التدخل يتم سافراً ومنظماً ومنتظماً في صورة أوامر كتابية من «القيادة السياسية» .

والنتيجة أن هذه التنظيمات قامت بغير فعالية ، وأن قياداتها فرضت وعملت ولكن دون احترام من الجماهير ، وفقدت الجماهير ثقتها في هذه «الهياكل» وأحسست أنها ليست نابعة منها وأنها جزء من كيان آخر غريب عنها .

وهكذا حكم على مصر أن تعاني ولمدة طويلة من جيل كامل من «محترفي تملق السلطة» في مختلف المنظمات ، عناصر ما كان لها أن تحلم بمراكز قيادية في منظماتها دون احتراف تملق السلطة... ودون امتهان أسلوب العمل الجماهيري الصحيح ودون إخضاع منظماتهم لإرادة السلطة إخضاعاً تاماً وسلبها كل مظهر من مظاهر الفعالية أو المبادرة المستقلة...

وإذا كان سهلاً على «الحكام» التقاط مثل هذه العناصر و«نفخها» وتنصيبها على قمم هياكل المنظمات الجماهيرية ، فلسوف تعاني مصر لفترة طويلة حتى تستطيع الخلاص من مثل هذه العناصر...

ثم نأتي بعد ذلك إلى المشكلة الأساسية... التنظيم السياسي . لكننا نود قبل أن نخوض هذا المعترك الصعب أن نبحث أولاً في جوهر الموقف الذي اختطه عبد الناصر تجاه التنظيم السياسي كفكرة...

فهناك أولاً مبدأ «الوحدانية»... أي ضرورة قيام تنظيم واحد هو تنظيم السلطة وبذلك تنتفي من حيث المبدأ إمكانية قيام أي معارضة سياسية بشكل قانوني .

ودعماً لهذه الفكرة فقد ترددت دوماً نغمات الموسيقى المصاحبة مكررة أنغام الهجوم على الحياة الحزبية ، وكأن كل حياة حزبية هي في جوهرها شر مطلق ، وصورت فكرة الحزبية وكأنها برجوازية لا تليق بمقام البناء الاشتراكي... والأخطر من ذلك أن كتابات منظري الثورة قد اتخذت اتجاهاً منافياً للواقع التاريخي ، محاولة أن تلوي عنق التاريخ لتبرهن على أن مصر قد لفظت دوماً الحزبية وأن كفاح مصر لم يكن أبداً إلا من خلال تنظيم واحد للأمة كلها...

وفي كتيب بعنوان «نظرة تاريخية إلى تطور التنظيم السياسي في الجمهورية العربية المتحدة بعد ثورة عام ١٩٥٢ »[١] يقول الكاتب «ومن هنا يمكن القول بأنه استناداً إلى الظروف التاريخية لمجتمعنا فإن الحزب الواحد كان هو التعبير الطبيعي الذي يجسد وحدة الجماهير ووحدة آمالها وأهدافها

---

(١) ـ صدر هذا الكتيب ـ عن أمانة التنظيم بالاتحاد الاشتراكي العربي تحت عنوان «برنامج التثقيف الأول» ، الكتاب الرابع ، وكان يوزع أساساً على قيادات التنظيم .

وأن تعدد الأحزاب ليس إلا انعكاساً للانقسام بين المصالح الطبقية . ولذلك فإن التنظيم السياسي الواحد هو في الحقيقة عودة إلى الوضع الطبيعي الذي يعكس وحدة القوى الوطنية ووحدة اتجاهها في طريق التطور بعد أن سقطت الطبقات المستغِلة المتحالفة »[1] .

ثم تمضي المغالطة إلى أقصى مداها فتقول :

« إن الجماهير لم تستطع أن تعي أن تحقيق آمالها في الحرية والعدل مرتبط بقدرتها على الانتظام في تشكيل سياسي قادر على قيادة نضالها والتصدي للقوى المضادة » .

« ... إن القوة المستنيرة لم يكن لها من القوة أو الفعالية بحيث تستطيع التجمع داخل شكل تنظيمي يدافع عن مصالح الجماهير ، بل ولم يكن لها من القوة ما يمكنها من الحفاظ على المحاولات الأولى في هذا الاتجاه »[2] .

والحقائق التاريخية تنفي ذلك كله ، فلقد عرفت مصر تعدد الأحزاب منذ ثورة عرابي عندما ظهر إلى الوجود حزبان متمايزان تماماً ، حزب « شريف باشا » الذي أسمى نفسه بالحزب الوطني ، وحزب آخر دعامته ضباط الجيش وعدد من المدنيين الثوريين وأبناء الطبقات الوسطى وكان يطلق عليه اسم « الحزب العسكري » وكان لكل من الحزبين برنامج مستقل ، بل لقد قامت بينهما تحالفات وصراعات كانت بذاتها دليلاً على ارتفاع الوعي الطبقي لقادة كل منهما... وأخيراً فلقد اتخذ الحزب الأول... حزب شريف باشا والباشوات الدستوريين من ذوي الأصل التركي موقف الاحتقار من انتفاضة الجماهير وناصبوها العداء وسجلوا على أنفسهم خيانتهم للثورة العرابية...

---

(١) ـ المرجع السابق ـ ص ٦ .

(٢) ـ المرجع السابق ـ ص ٩ .

... ومنذ مطلع القرن العشرين تواجدت الأحزاب في مصر ممثلة لمختلف الطبقات الاجتماعية ، وعندما قامت ثورة ١٩١٩ كان هناك في بداية نشوبها الوفد... ـ الحزب الوطني ـ الحزب الديمقراطي ـ وتجمعات اشتراكية ماركسية وأخرى فابية وثالثة موالية للدولية الثانية ، بل لقد كان هناك تجمع صغير للهيجليين اليساريين بزعامة استاذ للفلسفة بالجامعة هو الدكتور علي العناني .

وليس من السهل الادعاء هكذا «بأن القوة المستنيرة لم يكن لها من القوة أو الفعالية بحيث تستطيع التجمع داخل شكل تنظيمي يدافع عن مصالح الجماهير» .

ذلك أن تاريخ التنظيمات الاشتراكية وغيرها من المنظمات السياسية التي صمدت في وجه محاولات التصفية الضارية أوضح من أن يحتاج إلى إثبات... بالاضافة إلى ما تحمله هذه الكلمات الساذجة من نفي لكفاحية الجماهير المصرية... وطلائعها .

هكذا كان محور تفكير الناصرية هو «وحدانية الحزب» وقد تشبثت بهذه الفكرة إلى غير ما حد...

ويروي الاستاذ محمد حسنين هيكل أن كامل الجادرجي قد قدم إلى القاهرة ، وعرض خلال مباحثاته مع الرئيس عبد الناصر إقامة اتحاد فيدرالي بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية العراق على أساس أن يكون هناك رئيس واحد ، وأن تكون وحدة كاملة في قيادة القوات المسلحة وتوجيه واحد لسياسة الاتحاد ، ومقابل ذلك يسمح للأحزاب بأن تباشر نشاطها في داخل هذا الاتحاد[١] .

---

(١) ـ الأهرام ، ٣١ ـ ١ ـ ١٩٥٩ .

ورفض عبد الناصر... فإن قضية التنظيم الواحد كانت مبدأ لا يمكن التنازل عنه من وجهة نظره مهما أدت إلى كوارث...

لكن القضية لم تكن فقط قضية التنظيم الواحد ، فهي على أية حال قد لقيت القبول لدى الكثيرين ومن بينهم قوى تقدمية هامة عالمية ومحلية ، قبلتها ـ وربما على مضض ـ لكنها قبلتها على أية حال ، ولقد أجهد الكثيرون ـ عالمياً ومحلياً ـ أنفسهم بحثاً عن مبررات سياسية وفلسفية لهذه «الوحدانية» لكنهم فشلوا ، ليس لضعف مستواهم السياسي أو الفلسفي وإنما لأنه كان لا بد لهم أن يفشلوا .

أما الشيء الأكثر خطراً فهو ما تصوره عبد الناصر من «لا طبقية التنظيم» .

وفي ظل مجتمع مثل المجتمع المصري حيث تتواجد بالفعل طبقات ذات مصالح متناقضة وحيث ترتدي فئات البرجوازية الوسطى المسوح التي يريدها الحكام... أي حكام ، وحيث تستطيع هذه الفئات أن تتأقلم وتتلون سريعاً بحيث تصبح أكثر مرونة من النظام ذاته ، وأكثر مبادرة منه ، وأكثر قدرة على الحركة... ومن ثم أكثر قدرة على الاستيعاب من كوادره .

وفي ظل حكام لا يرضون بحكم الطبقة العاملة ولا بحكومتها ، ولا حتى بدور أساس تلعبه ، ولا بما هو ـ أضعف الايمان ـ في هذا الصدد وهو قيام هذه الطبقة بدور ذي قيمة في قيادة السلطة . وفي ظل جهاز للحكم يميل بطبيعة تكوينه الطبقي والفكري والثقافي والأسري والمعيشي نحو البرجوازية...

وفي ظل أداة للحكم لا تختلف في كثير عن تلك الأداة التي حكمت أيام فاروق...

وفي ظل سيادة عصر الكلمات الرنانة غير المخصبة ، عصر الشعارات المجدبة ، شعارات تتمطى من أقصى اليسار إلى ما هو عكس ذلك ، يستقبلها الجميع بغير إمعان وبغير اكتراث ، وكأنها صادرة من محطات إرسال بغير أجهزة استقبال .

ولطالما نافق حكام محكوميهم بشعارات براقة ، وبادلهم بعض محكوميهم النفاق بترديد نفس الشعارات ، لكن الكلمات تبقى في مثل هذه الأنظمة... مثل «ديكور» أو «مكياج» ، ليست الجوهر بل شيئاً اصطناعياً يخفي الجوهر الحقيقي . ومن هنا تتعلم الجماهير ألا تهتم ، وألا تتواجد ، وإن تواجدت فلأي سبب آخر غير الاهتمام ، فهي تتواجد تماشياً ، أو مدا في حبال الأمل ، أو منحاً لمزيد من الفرص للحكام ، أو حتى لكي تسد الباب أمام زحف الأعداء ، ولكنها تتواجد بغير حماس وبغير وجدان وربما بغير إنصات ، وتطير الكلمات في الهواء لأنها لا تصل إلى القلب لسبب واحد هو أنها لا تنبع من القلب .

وفي ظل ذلك كله تصبح «لا طبقية» التنظيم خرافة كبرى .

ذلك أن الطبقة الوسطى بحكم قدرتها على التلون وبحكم صداقاتها وعلاقاتها وقراباتها وبحكم ثقافتها وقدرتها على الكلام المنمق ، وفوق ذلك كله بحكم قربها قرباً شديداً من الموقع الطبقي للحكام ، تستطيع بسهولة شديدة - وفي غيبة من الحراسة الجماهيرية والتحرك الشعبي المنظم - أن تستحوذ على مراكز السلطة الأساسية في المجتمع وفي الأجهزة السياسية والإدارية والتشريعية على السواء .

وحتى برغم ذلك النص الثوري الذي جاء به الميثاق والذي كفل للعمال والفلاحين الحق في «نصف مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية على جميع

مستوياتها ، بما فيها المجلس النيابي ، باعتبارهم أغلبية الشعب»[1] فان الغلبة قد ظلت دوماً للطبقة الوسطى وللفئات العليا من البرجوازية الصغيرة .

كيف ؟

أولا لأن أصحاب الشعار لم يكونوا أنفسهم راغبين في تطبيقه... فالنص يطالب كما نرى بحق العمال والفلاحين في مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية على جميع مستوياتها أي من الوحدة القاعدية حتى اللجنة التنفيذية العليا (كما كان سابقاً) أو الأمانة العامة (كما هو حالياً) لكن ذلك لم يحدث أبداً ، لم يحاوله أحد ، بل ولم يجرؤ أحد على محاولته . ولقد ظلت اللجنة التنفيذية العليا دوماً من دون عامل واحد .

وحتى في الأجهزة التي شكلها عبد الناصر بنفسه لأداء مهام محددة مثل لجنة الخمسين التي تشكلت في ١٦ مايو ١٩٦٨ والتي عينها عبد الناصر بنفسه للإشراف على انتخابات الاتحاد الاشتراكي فإننا نجد أنها كانت تضم «١٢ عضواً أي ٢٤ بالمئة من مجموع أعضائها من الحاصلين على درجة الدكتوراه» وفوق ذلك فقد كانت تضم «خمسة وزراء سابقين ، وخمسة رؤساء مجالس نقابات مهنية و١٧ عضواً في النقابات المهنية غير العمالية وطالباً واحداً»[2] فماذا بقي للعمال حتى مع افتراض أن من أطلقت عليهم صفة العمال كانوا عمالاً بالفعل ؟

أما اللجنة المركزية التي أسفرت عنها تلك الانتخابات الصاخبة ، والتي جرت في أعقاب بيان ٣٠ مارس فقد كانت تضم من بين مجموع أعضائها المائة والخمسين «٢١ من أمناء المحافظات (وهم في غالبيتهم ان لم يكن

---

(١) ـ الميثاق ـ طبعة الدار القومية للطباعة والنشر ـ ص ٤٦ .

2- R Heiii Dekmejian - Egypt Under Nassei - University of London Press, 1972, P. 272

جميعهم من غير العمال والفلاحين) ، ٢٤ وزيراً ، وزيرين سابقين ، ٧ أعضاء مجلس أمة ، ٣ من كبار الموظفين ، ٣ محامين ، ٧ من رجال البحث العلمي ، ٣ رؤساء مجلس إدارة ، صحفيين ، مدرسين ، عضوين بمجلس إدارة نقابات مهنية ، ٥ مديرين بالإصلاح الزراعي » .

ولعل هذا يكفي بالنسبة للجنة المركزية...

لكن ذلك كله ـ على أية حال ـ قاصر في حدود هؤلاء الذين قبلوا أن يسموا أنفسهم «فئات أخرى» ولم يتمسكوا أو بالدقة لم يتمسحوا بصفة «العامل أو الفلاح» .

وهنا تكمن المشكلة الأساسية ، ذلك أن الطبقة الوسطى لم تكتف بأن تستحوذ على نصيب الأسد «علناً» في قيادات التنظيم السياسي الوحيد ، بل انها استحوذت أيضاً على أغلب النصيب الذي بقي للعمال والفلاحين...

فإذا ما ألقينا نظرة على تكوين المؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي وهو المؤتمر نفسه الذي نبعت منه اللجنة المركزية التي أشرنا إلى تكوينها فيما سبق فإننا نجد نتائج بالغة الأهمية لدراسة حقيقة التكوين الطبقي لعينة من أعضاء المؤتمر القومي العام قوامها ٥٦٤ عضواً ، وقد وجد أن من بين ممثلي العمال والفلاحين في هذه العينة عناصر مثل «وزير سابق ، لواء سابق بالجيش ، ٤ رؤساء مجالس إدارات شركات ، ٢٥ من مديري جامعة ، وكيل جامعة ، أستاذ بمعهد عالٍ ، ١١٧ موظفين كتابيين ومحاسبين وصيادلة ، ٢٩ رؤساء أقسام ووكلاء إدارات ورؤساء حسابات ، صحفيين ، مخرج إذاعي ، مأذون ، جزار»[١]

وهكذا تسيدت الطبقة الوسطى الموقف ، وكان تسيدها مسألة طبيعية

---

(١) ـ د . رفعت السعيد ، كتابات عن الطبقة الوسطى المصرية ـ مجلة الطريق اللبنانية ـ عدد ٤ عام ١٩٧٢ ـ ص ٤٨ ـ نقلاً عن مجلة الطليعة القاهرية عدد أغسطس ١٩٦٨ ـ ص ١٠٧

جداً ، لكن الشيء الطبيعي الآخر هو النتيجة التي نجمت عن ذلك ، وهي إحساس جماهير العمال والفلاحين إحساساً عميقاً لا يقاوم بالغربة عن هذا البناء ، وإدراكها بشكل قاطع أن هذا البناء السياسي كله لا يمثلها ، لا هو منها ، ولا هي منه .

ولم تكن الجماهير وحدها التي أدركت ذلك ، بل إن عبد الناصر نفسه قد أدركه ربما متأخراً بعض الشيء ، لكنه أدركه على أية حال عندما قال «أنا بقول إذا أردنا لنسبة الـ ٥٠ بالمئة المكفولة بالميثاق ، ميثاق العمل الوطني للعمال والفلاحين ، أن تؤدي دورها في تحقيق التوازن بين قوى الشعب العاملة ، ودفع التطور فإنه لا بد من مقياس جديد يكفل ذلك أكثر ، والتعريف الماضي سمح للكثيرين من كبار الزراع والملاك والرأسمالية الوطنية والموظفين أن يدخلوا عن العمال وأنا بحثت وفكرت ووصلت إلى شيء مبدئي»[(١)]

وبعد ١٥ يوماً من البحث والتفكير قام عبد الناصر بتشكيل لجنة الخمسين التي أشرنا فيما سبق إلى تشكيلها ، أما النتائج الواقعية لعملية التصحيح ولوضع تعريف عبد الناصر الجديد من هو العامل والفلاح موضع التطبيق ، فقد كانت تلك اللجنة المركزية وذلك المؤتمر القومي اللذين تحدثنا عن تكوينهما فيما سبق... ولعل في ذلك العبرة كل العبرة والكفاية كل الكفاية...

وتظل المسألة دوماً بغير علاج . حتى ولو سطحي أو شكلي . فالبرجوازية الوسطى لم يعد يقف أمام مطامعها أي عائق ، وهي ترفض مبدأ الـ ٥٠ بالمئة للعمال والفلاحين رفضاً قاطعاً ، وهي تملك القدرة على التسلط

---

(١) ـ جمال عبد الناصر ـ خطابه في عيد العمال بكفر الدوار ـ ١ مايو ١٩٦٨ .

على مختلف الأجهزة ، ومن ثم فهي وإن لم تستصدر قانوناً بإلغاء نسبة الـ ٥٠ بالمئة فإنها تفرض إلغاءها الواقعي يوماً بعد يوم...

هل أحتاج إلى مزيد من الأدلة أو الأمثلة ؟

حسناً فلنأخذ مثالاً أخيراً ، لآخر عملية انتخابية جرت وهي اختيار رئيس ووكيلي مجلس الشعب للدورة الثانية للمجلس التي عقدت أولى جلساتها في ١٥ أكتوبر ١٩٧٢ ، ووفقاً للقانون فإنه يجري انتخاب وكيلين للمجلس أحدهما عن العمال والآخر عن الفئات الأخرى وكان الوكيل الذي جرى انتخابه عن العمال ـ هكذا قالوا ـ هو الدكتور السيد علي السيد الحائز على درجة الدكتوراه في القانون التجاري ومدير إدارة العقود بهيئة المواصلات اللاسلكية بالإسكندرية[١] .

لكن القضية لم تكن ذلك كله فقط ، وإنما كانت تساؤلاً حاداً هزّ وجدان كل فرد في هذا الشعب... هل كانوا يريدون بالفعل عملاً سياسياً منظماً وفعالاً وقوياً ؟ هل كانوا بالفعل يريدون تنظيماً يقود ويؤثر ويبادر ويتحرك ويحرك بغض النظر عن المضمون الطبقي لذلك كله ؟

أزعم لا .

لقد كانت التنظيمات السياسية والتشريعية ، بل وكثير من التنظيمات الإدارية مجرد «ديكور» حسن الصنع ، أو «هياكل بديلة» توحي بوجود العمل السياسي وتعطي النظام هيبة واحتراماً محلياً وقومياً وعالمياً ، دون أن تسمح بأي تواجد فعلي لأي نشاط سياسي جاد أياً كان ، وحتى لو كانت أهدافه متفقة مع أهداف النظام... والأمثلة كثيرة لتجمعات «بريئة غاية

---

(١) ـ الأهرام ـ ١٦ أكتوبر ١٩٧٢ .

البراءة» من شبان «بدون أي اتجاه سياسي» بادروا بحملات لتنظيف قراهم أو أحيائهم أو بادروا بنشاط لمحو الأمية أو الدعوة لتنظيم الأسرة ، لا لشيء إلا أنهم يحبون هذا البلد وهذا الشعب ، أو ربما لأنهم صدقوا ما سمعوا من شعارات عن الخدمة الجماهيرية والنشاط السياسي ، ثم ما لبثوا أن صدموا بأجهزة الأمن ترصدهم وتفرقهم إن لم يكن بالحسنى فبغير الحسنى ، وكم من شاب حسن النية بادر بمثل هذا النشاط «البريء» فإذا به يدرج في قوائم «السياسيين الخطرين» .

هكذا أرادوا تنظيماً سياسياً بغير نشاط سياسي جاد ، بغير مبادرات سياسية ، بغير أسلوب سياسي في التعبير وابداء الرأي...

ولقد كان هناك تناقض خطير ، فالحكام بحاجة إلى التنظيم السياسي ، استكمالاً للشكل ، ليس هذا فحسب وإنما أيضاً لأنهم بحاجة إلى جهاز وأداة تمكّنهم من الحكم بصورة أفضل وأسهل ، لكنهم كانوا لا يريدون لهذا التنظيم أن يتواجد في صورة مستقلة أو متميزة عنهم ، أو أن يتمتع بأية قوة يستمدها من أي مصدر غيرهم هم وحدهم ، بحيث يتمكن بعد ذلك من أن يتمايز عنهم ولو قليلاً ، أو أن يؤثر عليهم ولو بشكل طفيف...

وهكذا أرادوا التنظيم السياسي ليس «أداة للحكم» وإنما «أداة طيعة في يد الحكم» ، ذلك أن قيام أي تنظيم سياسي جاد كفيل بأن يحول علامات الاستفهام التي تموج بها القاعدة إلى استجوابات... وهو كفيل أيضاً بأن يحول قوى القاعدة المنظمة والواعية إلى أداة للضغط على القيادة ، وهو فوق ذلك كفيل باقرار أشياء غريبة على تصورهم لأسلوب الحكم مثل مبدأ التصويت ، والنقد والنقد الذاتي ، وخضوع الأقلية للأغلبية بديلاً عن خضوع الجميع للقائد ، وهذه كلها أشياء كفيلة لو استقرت ـ ليس على الورق وإنما

في الواقع العملي ـ بأن تقلل من نفوذ الحاكم الفرد وتقلل من قدرته على التحكم وعلى الانفراد بإصدارالقرار .

وهكذا فإنه إذا جاز لنا أن نصوغ مبادئ في هذا الصدد فإن المبدأ الأول هو أنه كلما زادت فعالية ونفوذ وجماهيرية التنظيم السياسي كلما قل نفوذ الحاكم ، وقلت قدرته على الانفراد باصدار القرار ، وقدرته على الانفراد بالتحكم حتى في مصائر هذا التنظيم ذاته .

ولذلك فإن أحداً من صناع مثل هذه التنظيمات لم يكن ليرحب مطلقاً بقوتها أو بنفوذها... أليس هذا غريباً ؟!

كذلك فإننا نشهد على مسار علاقة الثورة بتنظيمها السياسي أشياء غريبة ، وبرغم غرابتها ، وربما بسبب غرابتها استسلم لها الناس وسلموا بها...

مثلاً هناك «قرار» الحاكم ـ منفرداً ـ بتسريح كل التنظيم السياسي ، فقد كوّن «هيئة التحرير» ثم أصدر قراراً بتسريحها عندما أراد ، وربما كان تسريحها شيئاً جيداً بذاته لكن الملفت للنظر هو أن أحداً لم يستشر هذا الجيش الضخم من السياسيين الذين احتشدوا وانتظموا ووضعوا لوائح وقواعد أوامر ، اندمجوا في الدور حتى صدقوا وتخيلوا ما شاؤوا من حقوق وواجبات ، ثم فجأة ودون أن يستشيرهم أحد صدر قرار بتسريحهم . إن أحداً لم يستشرهم لأنهم أبداً لم تكن لهم قيمة في نظر صاحب القرار في الأقل .

كذلك وبالأسلوب نفسه سرح «الاتحاد القومي» ثم الاتحاد الاشتراكي (الأول) ذلك الصرح الضخم من التنظيمات العلوية والوسطى والقاعدية... والألوف المؤلفة من الأعضاء والكوادر والمتفرغين ، والمعاهد والدورات

التثقيفية والأوامر والقرارات وأجهزة الاتصال... تلك الهيبة والصولجان والخطب الرنانة والمناقشات والندوات والمسارات... كل ذلك انتهى بعبارة واحدة نطق بها عبد الناصر... «إن علينا أن نعيد بناء الاتحاد الاشتراكي»[1]

إن أحداً لم يسأل لماذا ؟ إن أحداً لم يحتج! إن أحداً لم يسأل كيف ؟ إن أحداً لم يقاوم... وكأن هذا التنظيم بكل قواه كان «لقيطاً» بغير أهل... ولربما كان حل هذا الاتحاد الاشتراكي عملاً جيداً بذاته ، لكن الغريب في الأمر هو قدرة «الناصرية» الخارقة وبفضل ممارساتها بالترغيب تارة ، وبالعنف الشديد تارة أخرى ـ على تحويل كل مشتغل بالسياسة في صفوفها ، إلى «أداة سياسية» تطلق «الصفارة» فينتظم في الصف ، ثم تطلق صفارة أخرى فيتفرق... كذلك كان الأمر مع منظمة الشباب ، فقد جمعوا ألوفاً مؤلفة من الشبان والشابات بلغ عددهم في بعض الأحيان ٢٣٥ ألف شاب وشابة... حشّدوهم صفوفاً متراصة ، وشحنوهم بشحنات سياسية بالغة الحماس ، ودربوهم في دورات تثقيفية ومعسكرات تدريب ، ثم أطلقوهم...

أعطوهم صفوفاً أكثر مما استحقوا ، وكلفوهم بواجبات فوق طاقتهم ، وبنوا عليهم آمالاً كباراً .

ثم رويداً رويداً أحس القائد أن المنظمة قد تحولت إلى تنظيم سياسي بالفعل... متماسك... قادر على الحركة المستقلة... وأحست أجهزة الأمن أن الشبان قد بدأوا تحت ضغط الحركة الجماهيرية يتجهون يساراً ، وأن ممارستهم للعمل السياسي الجاد وسط الجماهير قد دفعتهم إلى تناقضات حادة مع الأجهزة ، وأن هؤلاء الشباب تحت وطأة التناقض بين الشعارات الثورية وسلبيات التطبيق قد بدأت تسودهم روح التذمر... وأوشك التنظيم أن

---

(١) ـ بيان ٣٠ مارس ، طبعة مجلس الأمة ، ص ١١ .

يفلت من الخيط الذي يتعين أن يظل مقيداً به ، وكان قرار حل المنظمة ثم قرار تشكيلها من جديد... ثم حلها مرة أخرى...

ثم ها هي تُبنى من جديد...

أليس ذلك كله تعبيراً عن إصرارهم على أن يكون التنظيم السياسي بكل ما فيه وبكل من فيه تابعاً للحاكم... أليس في ذلك وحده الكفاية كل الكفاية لتفسير سر فشل هذه التنظيمات وعجزها عن الجماهير ؟

أي تنظيم سياسي هذا ؟

هل يستطيع مثل هذا التنظيم ان يكسب ثقة أحد ؟ أو احترام أحد ؟... أو أن يقود أحداً!

لست أعتقد أنني بحاجة إلى أية إجابة... أو أية أضافة .

ولقد كان كل ما سبق بحثنا في الموقف الفكري تجاه قضية التنظيم السياسي فماذا كان الموقف العملي... ؟

إن النتائج تغني عن الخوض في المقدمات ، ولقد كانت نتيجة ممارسة العمل السياسي في إطار الاتحاد الاشتراكي لسنوات عديدة فشلاً وعجزاً ليسا بحاجة إلى تبيان .

كانت الانتخابات تزيف ، وكان الجميع يعلمون أنها تزيف ، ولقد أصبح التزييف شريعة بل وشرعاً ، بحجة تنفيذ تعليمات «القيادة السياسية» وكان التزييف لا يجري فقط لمجرد الرغبة في استبعاد أشخاص معينين ، وإنما رغبة في استبعاد «الفائزين» بتجريدهم دوماً من أي إحساس بالاستقلالية عن النظام ، أو بالحب والاحترام الحقيقي من جانب الجماهير ومن ثم بالولاء لهذه الجماهير ، ذلك أن الولاء يجب أن يتجه في مسار

واحد ، فقط إلى أعلى نحو «القيادة» ومن هنا فقد كانت هناك خطة مرسومة تستهدف إقناع جميع الكوادر بأنها مدينة بمنصبها في التنظيم ومن ثم بموقعها في «حواشي» السلطة أو بالقرب منها ، ليس للجماهير ، ولا للناخبين ، إنما لمن أتوا بها إلى هذا المنصب رغم أنف الجماهير... هكذا كانوا يضمنون ولاء الكوادر وطاعتها وخضوعها بتجريدها من أي التصاق فعلي بالجماهير... من السهل أن تكسب «سيداً» واحداً في يده كل شيء من أن تسعى لكسب الألوف من الناس العاديين الذين لا يملكون شيئاً...

وهكذا تحول «التدخل في الانتخابات الى شريعة من شرائع الحكم ووسيلة من وسائله الثابتة» .

وكان طبيعياً أن تشعر الجماهير بالتقزز من كل ما يجري وأن تتواجد هوة سحيقة بين التنظيم والجماهير .

ولقد افتقد التنظيم أبسط قواعد المركزية الديمقراطية ـ وافتقد القنوات بين القيادة والقاعدة ، ولقد ظلت القيادات الوسطى للاتحاد الاشتراكي ـ دوماً ـ في حالة تمزق بين مطالبات الجماهير وإعراض القيادة .

ولم يتضمن قانون الاتحاد الاشتراكي أي نص يمكّن القاعدة من مساءلة القيادة ومحاسبتها ، ولم يتضمن القانون أية نصوص تكفل للقاعدة حق الحصول على إجابات على تساؤلاتها ، ولم ينظم حقوق القاعدة في نشر رأيها والتعبير عنه... وعلى أية حال فأنه لا مبرر على الإطلاق لإخضاع قانون الاتحاد الاشتراكي لأية دراسة أو أي نقد ذلك أنه بالرغم من قصوره الشديد لم يوضع مطلقاً موضع التطبيق العملي .كذلك فقد كان تركيب القيادات العليا للتنظيم يخضع هو أيضاً لفكرة «عسكرة النظام» . ولقد تناولنا فكرة «العسكرة» في فصل سابق ، لكنها إذ تصبح في الجهاز الإداري والحكومي خطأً أو خطراً فأنها تصبح في الجهاز السياسي عائقاً خطيراً .

ولنأخذ اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي في الفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤ لنجد أنها كانت تضم ١٨ شخصاً منهم ١٢ ضابطاً سابقاً . وفي ٢٨ نوفمبر ١٩٦٦ خُفّض عدد أعضاء اللجنة التنفيذية العليا الى سبعة أعضاء كانوا جميعاً ضباطاً سابقين .

أما الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي فقد كانت تضم في ديسمبر ١٩٦٤ ، ٢٥ عضواً منهم ١٦ ضابطاً سابقاً .

ولقد كانت وظيفة السكرتير الأول أو الأمين العام دوماً من نصيب العسكريين ، ولم يتغير هذا الوضع إلا بعد ١٥ مايو .

والذي أود أن أوضحه هو أنني لا أعتبر كون المرء ضابطاً سابقاً تهمة على الإطلاق ، بل لعلها شرف عظيم لهؤلاء الذين أسهموا في خلق تنظيم الضباط الأحرار ، وفي قيام ثورة يوليو... لكن الخطر يكمن في التكوين الفكري «غير السياسي وغير الجماهيري» لجماعات الضباط الذين تربوا ـ وليس هذا ذنبهم ـ على مبدأ الطاعة التامة للقائد وعلى مبدأ الانصياع المطلق من القاعدة (أليست هذه هي نظريتهم بالفعل في التطبيق العملي ؟) ، وبرغم نجاح البعض في تخطي هذا الحاجز فإن الكثيرين ظلوا دوماً يمارسون عملهم السياسي بعقلية «العسكر» ، ولقد ساعد على ذلك بغير شك أنهم كانوا دوماً الغالبية وأنهم كانوا دوماً أصحاب السطوة فلم تتح للعناصر الأخرى الفرصة للتأثير فيهم ولا في أساليب عملهم .

ثم نمضي الى سبب آخر هو شخص «الزعيم» الذي حقق نجاحات عظيمة بقرارات «علوية» صادرة منه هو ، فتزايد حجم زعامته محلياً وقومياً وعالمياً الى الحد الذي تضاءلت الى جواره أدوار الآخرين ، فلم يشعر أحد منهم بكيانه رغم أنه كانت فيهم عناصر ذات كفاءة عالية ، وحتى لو استشعر

أحدهم لنفسه كياناً متميزاً فإن «الزعيم» الشديد الحذر ، السريع الشك ، الراغب دوماً في الإمساك بجميع الخيوط ، الرافض دوماً لأية زعامات أخرى ولو «ثانوية» ولو «مساعدة» كان قادراً باستمرار على البطش به ودفعه دفعاً الى زوايا النسيان... أو أجباره على «تصغير» حجمه .

هكذا لعبت شخصية الفرد دوراً هاماً في تكوين هذه الصورة ، ولقد كانت لشخصية عبد الناصر جوانب إيجابية عظيمة ، لكنه كان يرغب ويصمم دوماً على الانفراد وحده ودون أي شريك آخر بالسلطة كاملة...

وربما كان لانفراده دور إيجابي ، فقد كان من أكثرهم ثورية ومن أكثرهم تقدماً ـ مع استثناءات قليلة ـ لكن عظمة الدور الايجابي تتلاشى أحياناً تحت وطأة المتناقضات الخطيرة التي فجرّها هذا الحكم المطلق والتي ولّدها الافتقار الى الديمقراطية وحرية التعبير وحرية الرأي وكل مرادفات وصفات لفظة الحرية...

ولست أشك مطلقاً في أنه كان من المستحيل أن ينجح عبد الناصر فيما نجح فيه لو أنه أخضع نفسه ومصروفاته لقيود الليبرالية التقليدية ، أو القوالب الديمقراطية البرجوازية ، ولقد كان من الضروري ـ فعلاً ـ اللجوء الى بعض الأساليب الاستثنائية ، لكن الخطأ الفادح هو أن عبد الناصر أحال الاستثناء الى قاعدة شاملة ومستديمة واستمرأ الحكم منفرداً ، واعتبره الوسيلة الوحيدة الممكنة للحكم ، وقد أدى تحويل الاستثناء الى قاعدة الى ظاهرة خطيرة هي عزلة النظام عن غالبية الجماهير ، ولست أعني هنا بالعزلة «الرفض» وانما أعني بالتحديد الإحساس «بالغربة» و«انعدام الصلة» . ولقد أتى وقت من الزمن كان فيه الجميع يتباهون بالعزلة حتى كبار المسؤولين كانوا يعربون ببساطة عن عدم اطلاعهم على مجريات الأمور ويحرصون دوماً على «إخلاء مسؤوليتهم» من كل ما يجري...

لكن التيار الجارف للتفرد طغى على كل شيء وانتقلت العدوى ، فكثيراً ما يخلق «القيصر» بأسلوبه في الحكم «قياصرة صغار» ، وتكاثر القياصرة الصغار يمارسون اللاديمقراطية بأسلوب الصغار ، فيتعالون ويتباهون وينهبون ويثرون ثراءً فاحشاً بقدر ما هو غير مشروع ، ولقد فعلوا ذلك دون خشية بل ودون حياء ، فما من رقابة من أعلى وما من رقابة من أسفل... ولكن ذلك لم يكن يعني أن قمة السلطة كانت غافلة عن عبث وفساد القياصرة الصغار ، فان لديها جهاز معلومات شديد الدقة ، لكنه يبدو أن العبث والفساد كانا أمرين غير مرفوضين على أساس أن امتلاك الأدلة في يد قمة السلطة على فساد القياصرة الصغار كان في ذاته كافياً لإخضاعهم وإرغامهم دوماً على اتخاذ مواقع «الصغار» .

وهكذا نرى أن نفي الديمقراطية كان سبيلاً خطيراً الى إفساد مواقع الحياة اليومية ، لا لأنه لم يتح الفرصة للرقابة من أسفل ـ فحسب ـ وإنما لأنه أيضاً قد أسكت عن عمد الرقابة من أعلى ، ولأنه قيّد حركة الجماهير الشعبية وشلّ قدرتها على المبادرة وعلى التحرك لحماية مكاسبها ، فأتاح الفرصة ـ بالضرورة ـ أمام الطبقة الوسطى للتحكم والتفرد بمناصب القيادة في مختلف المجاملات...

وهكذا فقد كان نفي الديمقراطية كافياً بذاته لإجهاض عدد من منجزات الثورة ولتقليل الفائدة المتاحة من العدد الآخر .

ومن ثم فإن الديمقراطية قد أصبحت ليس مجرد حق للمواطن وإنما هي حق للوطن . ذلك أن التجارب قد أوضحت ـ بغير ما شك ـ أن إطلاق حركة الجماهير في التحرك والتنظيم قد أصبح شرطاً أساسياً لحماية الوطن وحماية كل مكتسباته وحماية التحول الاجتماعي ، والتخلص من تلك القبضة

الرهيبة للطبقة الوسطى التي تحاول أن تحكمها على مقاليد المفاتيح الأساسية للعمل السياسي وأن تستنزف من خلالها كل خيرات مصر... وتفسد بها كل آمال مصر .

* * *

لكننا ونحن ننتقد الخطأ يتعين أن نحاذر الوقوع في «الخطيئة» . والخطيئة ـ فيما أعتقد ـ هي الانقياد الى مصيدة تنصبها الرجعية وهي تردد دعاوى مزعومة عن الديمقراطية...

لكن دعاوى «ديمقراطية» الرجعية ليست نابعة ـ بأية حال من الاحوال ـ من انتقاد مواقف عبد الناصر السلبية تجاه حركة الجماهير وتجاه ضرورة تعبئتها لحماية المنجزات الثورية ، بل على العكس من ذلك تماماً فإنها تنطلق من انتقاد إجراءات التأميم وغيرها من الإجراءات والقرارات الثورية باعتبارها قرارات «لا ديمقراطية» .

وهكذا فان كلا منا يقف في معسكر مختلف تمام الاختلاف ، إنهم ينادون بديمقراطية زائفة تهدف الى العودة بمصر الى الوراء . ولقد سبق لجماهير مصر أن أدانت «ديمقراطيتهم» وأن سحقتها تحت وقع أقدام المد الثوري الصاعد ، ولن تقبل هذه الجماهير العودة مرة أخرى الى حبائل ديمقراطية البرجوازية ، أو بالدقة ، لا ديمقراطية البرجوازية .

كذلك فإن سنوات الكبت الطويل قد ولّدت لدى كثير من المثقفين ، وحتى بعض اليساريين منهم نزوعا نحو «الليبرالية» .

ولئن كانت الليبرالية يوماً ما حلماً بالنسبة للبعض ، فإنها قد أصبحت بالنسبة لمصر ولواقعها الاجتماعي شيئاً قد فات أوانه .

نعود فنكرر ، ان الديمقراطية التي نريدها هي بالتحديد ديمقراطية جماهير الشعب الكادح... ديمقراطية جموع العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين... وليست أي شيء آخر...

ذلك أن الحركة الواعية لهذه الجماهير هي وحدها القادرة على وضع كل ما سبق اتخاذه من قرارات ثورية موضع التنفيذ الجاد ، وهي وحدها القادرة على تصحيح مسار الثورة كلما كان ذلك ضرورياً... وعلى دفع عجلة الثورة قدماً الى الأمام كلما تطلبت الظروف ذلك...

انها ديمقراطية مصر الثورة... مصر الشعب... مصر العمال والفلاحين والمثقفين...

«عسكرة» النظام

أعني بعسكرة النظام بث أعداد كبيرة جداً من ضباط الجيش السابقين في كل مناحي الحياة السياسية والتشريعية والإدارية... وفي اجهزة الحكم المحلي... وباختصار في كل مكان يمكن ان تمارس منه سلطة فعلية او يحظى صاحبه بمرتب مرتفع او جاه او نفوذ .

ولقد دبّر عبد الناصر الأمر بحيث لم تمض سوى بضعة سنوات على قيامه بالثورة حتى كانت مفاتيح النشاط الفعلي في أي مجال من مجالات الحياة المصرية في أيدي «العسكريين» .

ولقد ساعده على ذلك ـ بطبيعة الحال ـ ان الجيش مؤسسة متعددة الأنشطة بحيث يمكنك ان تجد في صفوفها الى جانب الضباط التقليديين مهندسين وأطباء ومحامين... الخ لكنهم يظلون على الدوام مدموغين بالطابع العسكري في التفكير والتصرف .

لكن لماذا العسكر بالذات ؟

لذلك أسباب عديدة .

لعل واحداً منها هو ان عبد الناصر أراد بعد وثوبه الى السلطة

الحقيقية ، أي بعد اضعاف نفوذ منافسيه داخل مجلس قيادة الثورة ، أن يصفي من الجيش كل أثر للعمل السياسي حتى يضمن إبعاد المؤسسة العسكرية وبشكل تام عن أي تأثير في السياسة او تأثر بالسياسة .

وهكذا جرت عملية إبعاد الأعداء ، والمشكوك في ولائهم ، وكل من تثور حوله شبهة ، وكل من ليست ضده شبهة لكن اتجاه ولائه ليس معلوماً ، وفوق ذلك كله ـ وهذا هو الغريب والمثير ـ فقد أبعد الأصدقاء بل وأخلص الأصدقاء من صفوف القوات المسلحة.. وذلك لكي لا يبقى في المؤسسة العسكرية مجال لقول او نقاش او نقد أو تساؤل اوحتى محاولة لفهم تطورات الأمور السياسية .

ولقد ضاعف عبد الناصر من جهده ونشاطه في هذا الصدد بعد أحداث مارس ١٩٥٤ حيث ظهر بوضوح تدخل العناصر العسكرية في التطورات السياسية ، وحيث امتلك بعض الضباط الشبان بعضاً من النفوذ السياسي في صفوف القوات المسلحة ، وحيث انعقدت سلسلة من المؤتمرات السياسية لضباط القوات المسلحة لعل أشهرها وأكثرها تاريخية هو مؤتمر ضباط سلاح الفرسان الذي واجه فيه عبد الناصر شخصياً عاصفة من اللوم والانتقاد الشديد .

وتقرر إبعاد الجميع ، تقرر اجتثاث السياسة من الجيش ، وهكذا سرح مئات من الضباط ، ليسوا جميعاً من الأعداء ـ كما قلت ـ بل ان غالبيتهم كانت من الأصدقاء الفعليين للثورة...

ولم يكن من الممكن إبقاء هؤلاء جميعاً في بيوتهم بغير عمل ، فهم أصدقاء اولاً ، وحتى لا تغضب المؤسسة العسكرية ثانياً ، وهكذا فتحت أبواب مصر كلها أمامهم يتربعون حيث شاؤوا على كل قمة استطاعوا ان

يجدوها أو حتى يفتعلوها بادئين بذلك عصراً جديداً أسماه الكثيرون «حكم العسكر» .

وثمة سبب آخر ، هو أن عبد الناصر كان يدرك منذ وصوله الى السلطة ان جهاز الدولة القديم بحاجة الى تغيير ، تلك حقيقة كان يشعر بها كل إنسان ، لكن الإنسان يسعى للتغيير وفقاً لمنهجه في التفكير ولما ينوي ان يتبعه من أسلوب .

والتغيير عند عبد الناصر لم يتم من خلال تصفية الجهاز القديم وإبداله بجهاز جديد تماماً وثوري تماماً ، وإنما تم من خلال استبعاد عناصر محدودة جداً ، ثم إتخام الجهاز كله بعناصر من الضباط موثوق في ولائها...

وكان ذلك طبيعياً ـ من وجهة نظره ـ فهو لا يثق بقدرة جماهير العمال والفلاحين على المشاركة الفعلية في إدارة اجهزة السلطة ، وهو لا يريد ـ من ناحية اخرى ـ ان يخضع تصرفاته لأية مساءلة . هو لا يريد أن يسمع... كيف ؟ متى ؟ لماذا ؟ أين... ؟ والعسكريون وحدهم هم الذين يستطيعون ـ وفقاً لتكوينهم الذهني ـ ان يدبروا أمرهم دون أية أسئلة الى أعلى ودون أية علامات استفهام . ولقد سبق أن قلت إن التكوين الذهني العسكري يخلق مناخاً نفسياً يفرض على صاحبه الولاء المطلق للأعلى... والضغط المطلق على الأسفل .

وهكذا فإن هؤلاء الضباط كما أنهم لم يستطيعوا أو لم يتجاسروا على استخدام علامات الاستفهام فإنهم لم يسمحوا لأحد من أسفل بأن يستخدمها...

وبقدر ما كان هؤلاء «القياصرة الصغار» ضعافاً ومرتجفين تجاه «أعلى» بقدر ما كانوا متجبرين تجاه «أسفل»...

وهكذا برزت الى الوجود تسمية «أهل الثقة» .

لكن هل كانوا بالفعل أهل ثقة... ؟

بالنسبة لبعضهم نعم ، لكن البعض الآخر لم يكن يتمتع مطلقاً بثقة النظام ، بل لعل البعض منهم كان يندرج في عداد أعداء النظام ، وشارك في عديد من المحاولات الانقلابية الفاشلة التي جرت ضد النظام... وسجنوا ثم عفا عنهم عبد الناصر ثم منحهم وظائف عالية ومرتبات خيالية...!

أية ثقة هذه ؟

الحقيقة أنها تنبع من أن «الضابط» عندما يبعد عن القوات المسلحة ، ويوضع في إطار محدد ، ويحرم عليه النشاط السياسي او الفكري يصبح كياناً «مجتث الجذور» غير قادر على أي شيء سوى التطلع الى أعلى...

كذلك فإن الشعور الذي ساد «الضباط» في ذلك الحين بأنهم اصحاب «الثورة» قد تحول الى إحساس غذاه النظام بأنهم «منقذو البلد» ثم تطور فأصبح... أنهم «اصحاب البلد»... وتسارع كل منهم ليحصل على جزء من الغنيمة... وتمرغوا في النعيم ، واستمرأوا المنصب الكبير والراتب الكبير والدخل الأكبر... والمال بغير حساب والنفوذ والجاه بغير ضوابط... وناموا للنعمة... وهكذا تم ترويضهم حتى أصبحوا «أهل ثقة» وأصبحوا أيضاً نموذجاً حياً لكل ضباط الجيش العاملين... كل منهم يأمل أن يكون مطيعاً قدر الإمكان موثوقاً به قدر الإمكان حتى اذا ما أُحيل على المعاش حصل على مكان لنفسه فوق فراش النعيم الوثير الذي امتد بغير حساب... على حساب مستوى معيشة الجماهير الشعبية كلها...

والغريب في الأمر أن «أهل الثقة» هؤلاء قد تدرجوا سريعاً في مراتب الثراء بوسائل مشروعة أحياناً وغير مشروعة في أحيان كثيرة ، حتى أصبحوا من حيث الواقع الاجتماعي والفعلي أعداء لكل ما ينادي به عبد الناصر ، لكنهم ظلوا دوماً شديدي الارتباط به .

كانوا ضد الاشتراكية ، وضد شعاراتها ، أو إن شئنا الدقة ، كانوا ضد أية محاولة جادة لتطبيقها تطبيقاً فعلياً ، أما أن تكون مجرد شعارات وكلمات فلا بأس... فهم مثلاً مع القطاع العام لأنه الوعاء الذي استوعب الكثير منهم ولانه الوعاء الذي جمعوا منه ثرواتهم لكنهم كانوا ضد أي إصلاح لأحواله... ضد حق العمال في المشاركة مشاركة فعلية في الإدارة ، ضد أية رقابة عمالية أو شعبية ، وحتى ضد أية رقابة إدارية جادة ، لأن ذلك يعني سد المنافذ المستترة وغير المستترة التي يتدفق منها ثراء غير محسوب .

كانوا مع «الناصرية» لأنها منحتهم كل ذلك ، ولأنهم بغيرها لا يساوون شيئاً ، لكنهم كانوا أيضاً ضدها لأنها كانت في بعض الأحيان تهدد باستلاب هذا الذي منحته لهم او بعضه .

وباختصار فقد كانوا مع عبد الناصر وضده في آن واحد...

كانوا معه وهو يعطيهم بغير حساب ويمكنهم من التحكم في مفاتيح الحياة ، او في خشية من قبضته ، كانوا ضده وهو يسعى لتطوير العمل الثوري أو يحاول الخلاص من النواقص...

ولقد اصبح «أهل الثقة» هؤلاء يوماً ما عقبة اساسية في سبيل تطوير الثورة المصرية ، كانوا يعرقلون كل عمل ثوري ويعيقون مسيرته ، ولم يكن عبد الناصر براغب في تصفيتهم فهم عيونه وآذانه ، وهم أيضاً الأداة الطيعة المطيعة التي نامت للنعمة ورضيت بها بديلاً عن كل شيء...

وفي خضم هذا التناقض الصارخ عاش عبد الناصر فترة من الزمن وعاشت معه مصر كلها...

كذلك فقد كان «شحن» الجهاز كله «بالعسكر» مسألة ضرورية في نظر الناصرية التي كانت تتطلب الطاعة والانضباط بغير تساؤل أو نقد أو اقتراح أو مبادرة...

لقد كان النموذج الذي يريده عبد الناصر أن تصطف مصر كلها بشعبها ومؤسساتها وأجهزتها وطبقاتها صفاً واحداً ، منتظماً ، مطيعاً... وهكذا وزّع الضباط في كل مكان كي يحكموا انتظام الصف وانضباطه .

ولعل ذلك كله يمكن تفسيره بالصورة التي رسمها عبد الناصر لمصر وشعبها في كتابه «فلسفة الثورة» «جموع ليس لها آخر»... «أشياع متفرقة وفلول متناثرة» ، ثم بالصورة التي حلم بها لشعب مصر وهو يحددها في الكتاب نفسه «صفوف متراصة منتظمة» .

ولعله أراد من هؤلاء الضباط الذين ملّكهم زمام الأمور أن يصفوا له مصر صفاً واحداً منتظماً لا يتساءل ولا ينتقد ولا يستخدم علامات الاستفهام... وإنما فقط ينقاد .

ولعل «القياصرة الصغار» كانوا النموذج المثالي المطلوب .

ولربما كانت هناك أسباب عديدة أخرى تفسر لجوء عبد الناصر الى عسكرة النظام لكن المهم في الموضوع هو ان عملية «شحن» الجهاز بالعسكر قد جرت بسرعة غريبة بحيث أصبح الجهاز العلوي كله وفي مختلف مراتبه ملغوماً بالضباط في كل مناحيه...

ولكن الى أي مدى ؟

لنبدأ بالأرقام...

ثمة إحصائية طريفة عن مجموع عدد الذين تولوا المناصب الوزارية خلال الفترة الممتدة من وزارة محمد نجيب الأولى التي شُكلت في ٧ سبتمبر ١٩٥٤ وحتى التعديل الوزاري الذي قام به عبد الناصر في ٢٨ اكتوبر ١٩٦٨... والعدد هو ١٣١ وزيراً... فكيف كان توزيعهم ؟ .

توزيع الـ ١٣١ وزيرا بين مدنيين وعسكريين

	عسكريون	مدنيون
العدد	٤٤	٨٧
النسبة المئوية	٣٣,٦ بالمئة	٦٦,٤ بالمئة

ويعلق واضع هذا الجدول على هذه النسبة قائلاً «وعلى أية حال فإن أحداً يجب ألا يُخدع بهذه النسبة التي تبدو فيها العناصر المدنية ضعف العناصر العسكرية ، فلقد كان النظام بحاجة الى العناصر الفنية المتخصصة ، لكن هذه النسبة لا تعني مطلقاً ان المدنيين كانوا يتمتعون بسلطة ما ولو نسبية داخل النظام ، فإن غالبيتهم كانت مجرد أدوات في يد العسكريين او بالدقة في يد الرئيس نفسه . وطالما ان كلاً منهم كان يفتقد الى أي مصدر مستقل للقوة ، فان أحداً من هؤلاء الـ ٨٧ مدنياً لم يبرز كقائد سياسي متميز أو مستقل حتى في تلك الفترة المضطربة التي اعقبت حرب عام ١٩٦٧ .

فاذا ما أضفنا الى ذلك حرص عبد الناصر الشديد على ان تكون المناصب الهامة في يد ضباط سابقين امكننا ان ندرك الى أي مدى اتسم النظام كله بطابع عسكري .

أما هذه القلة القليلة من المدنيين الذي حاولوا التصدي للنفوذ العسكري فقد طردوا ، بينما الغالبية كانت أكثر اهتماماً بالمناصب العالية من اهتمامها بالمبادىء فرضخت تماماً لمطالب العسكريين » .

ثم نعود الى مواصلة الحديث لنبحث كيف تولت العناصر العسكرية بالإضافة الى نسبة الثلث أكثر المناصب حيوية وأهمية...

وهكذا فإننا نجد أن الاشخاص الذين تولوا منصب رئيس الوزراء خلال

هذه الفترة كانوا جميعاً من العسكريين (محمد نجيب ـ عبد الناصر ـ علي صبري ـ زكريا محيي الدين ـ سليمان صدقي) . ثم الوزارات الهامة : الدفاع ـ الإنتاج الحربي ـ الحكم المحلي ـ ووزارة الدولة (لشؤون المخابرات) كانت دوماً في أيدي العسكريين .

ووزارة الداخلية ظلت دوماً في أيديهم باستثناء فترة وجيزة تولاها عبد العظيم فهمي (ضابط بوليس ـ ولعل السر في ذلك كان يكمن في ان زكريا محيي الدين كان يخشى بعد اضطراره لترك هذه الوزارة كي يصبح رئيساً للوزراء ان يتولى المنصب منافس خطر له... فمنحها لواحد ممن يثق فيهم وممن لا يخشى من نفوذهم) .

أما وزارة الإرشاد القومي بكل ما يتبعها من أجهزة ـ استعلامات ، إذاعة ، تليفزيون... الخ فقد كانت في اغلب الأحيان في أيدي العسكريين أيضاً...

وكذلك وزارة الثقافة ظلت في اغلب أوقات تواجدها متقلبة بين د . ثروت عكاشة و د . حاتم وكلاهما ضابط سابق...

وحتى وزارة كوزارة الصحة فقد ظلت أيضاً لأمد طويل في يد ضابطين طبيبين (د .محمد نصار و د .عبد الوهاب شكري) .

وإذا كان من الممكن تفسير تولي ضابط طبيب لمنصب وزير الصحة فإنه يصعب تفسير تولي ضابط لوزارة الزراعة (الإصلاح الزراعي) «عبد المحسن أبو النور» .

أما وزارة الخارجية فقد ظلت لفترة طويلة في يد ضابط (محمود رياض)... وحتى وزارة البحث العلمي أيضاً (صلاح هدايت وكمال رفعت)... ويطول البحث وتتكاثر الأمثلة ، لكنني أعتقد أن الصورة الآن قد أصبحت واضحة...

وقبل ان نترك مجال الوزراء فإننا نقدم ملاحظة اضافية هي ان الإحصائيات توضح ان العسكريين كانوا أكثر استمراراً في مناصبهم الوزارية من المدنيين... ولنتأمل هذه الأرقام .

متوسط الاستمرار في المنصب الوزاري

الصفة	المدة بالاشهر
ضباط	٥٩,٥
مدنيون	٣٧

انها ميزة أخرى تمتع بها الضباط ، لكنها تعكس أيضاً مدى ما كان لهم من حظوة ، والى أي حد كانوا مميزين على المدنيين...

فإذا ما تركنا مجال الوزارة الى مجال آخر شديد الأهمية وبالغ الخطر لأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصالح الجماهير وبحياتها اليومية وهو مجال الحكم المحلي فإننا نجد ما يلي :

طوال الفترة المشار اليها ومنذ قيام الحكم المحلي تولى منصب وزير الحكم المحلي واحد من الضباط السابقين

أما المحافظون فقد كانت الصورة بالنسبة لهم صارخة...

نسبة توزيع المحافظين (مدنيين وعسكريين) ديسمبر ١٩٦٤

العدد الإجمالي	التوزيع	عسكريون	مدنيون
٢٦	العدد	٢٢	٤
	النسبة المئوية	٦١ ، ٨٤ بالمئة	٣٩ ، ١٥ بالمئة

ومعروف تماماً أنه طوال حكم عبد الناصر كانت أجهزة رئاسة الجمهورية تلعب دوراً أساسياً ، فقد كانت في كثير من الأحيان يُنظر اليها ، كوزارة ظل... او أنها الجهاز الذي يعتمد عليه عبد الناصر أساساً في إعداد ما يحتاج اليه من دراسات وأبحاث ومشاريع قرارات ، ومن هنا فقد استحوذت هذه الأجهزة على نفوذ كبير تضاعف مع مرور الزمن ومع زيادة الاعتماد عليها...

فما هي صورة توزيع المناصب العليا في هذه الاجهزة ؟

توزيع المناصب العليا في رئاسة الجمهورية (مدنيين وعسكريين) ديسمبر ١٩٦٤

	عسكريون	مدنيون
العدد	١١	١٣
النسبة المئوية	٤٥,٨٣ بالمئة	١٦ ، ٥٤ بالمئة

وفي حديثنا عن الديمقراطية أشرنا الى هيمنة العناصر العسكرية على قيادات الاتحاد الاشتراكي وخاصة منصب الأمين العام (السكرتير الأول) الذي انفردت به العناصر العسكرية على الدوام واللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي التي سيطرت عليها العناصر العسكرية تماماً...

... لكن ذلك كله لا يغني عن متابعة تطور هذه الظاهرة ونموها ذلك ان مثل هذه المتابعة بذاتها مؤشر بالغ الدلالة...

* * *

كانت البداية في ٧ سبتمبر ١٩٥٢ عندما اصبح واضحاً ان وزارة ماهر عاجزة تماماً عن مسايرة الثورة او عن التعبير عن مطامحها ، ورفض علي

ماهر قانون الاصلاح الزراعي بالصورة التي صدر بها وكان طبيعياً جداً ان يرفضه...

وشكل محمد نجيب أول وزارة عسكرية في تاريخ مصر المستقلة في ٧ سبتمبر ١٩٥٢ لكن كل اعضائها كانوا من المدنيين ، وحتى بالنسبة لمحمد نجيب نفسه فقد حرصت اجهزة الدعاية على إبراز انه حاصل على ليسانس الحقوق .

وعندما أعيد تشكيل الوزارة في ديسمبر ١٩٥٢ ظل نجيب أيضاً هو الضابط الوحيد ، ثم بدأت الصورة تتغير ، ففي يونيو دخل الوزارة (التي ظلت برئاسة نجيب) أربعة من العسكريين هم جمال عبد الناصر ـ عبد الحكيم عامر ـ عبد اللطيف البغدادي ـ صلاح سالم .

فلماذا كان ذلك التعديل ؟ وما هي أسبابه الحقيقية ؟ كانت هناك أولاً أزمة الثقة في العناصر المدنية المثقفة التي كانت ـ في البداية ـ تقاوم نفوذ الضباط (وقد تواجدت هذه المقاومة في البداية الى حد ما ، فالنظام الإداري والبيروقراطي المصري لم يكن قد اعتاد بعد على تواجدهم ولا على تصرفاتهم وأساليبهم ، وكانت بعض السمات الليبرالية لا تزال تؤثر في بعض المدنيين الذين ما ان رفعوا رؤوسهم حتى جرى استبعادهم) .

وكانت هناك أيضاً أزمة الثقة في نجيب نفسه ، ذلك ان نجيب في محاولته للتخلص من سيطرة مجلس قيادة الثورة كان قد بدأ سلسلة من الاتصالات والتحالفات أكثرها مع الاخوان المسلمين وبعضها مع قوى سياسية أخرى ، بهدف تكوين محور سياسي مدني مناوىء لنفوذ الضباط .

وكان هناك ثالثاً ذلك الشعار الذي تردد كثيراً في هذه الأيام مطالباً بالحفاظ على الدستور وبالحياة النيابية «السليمة» وبعودة الجيش الى ثكناته...

كانت الجماهير والقوى السياسية المصرية لم تعتد بعد على حكم «العسكريين» ولا على تصرفاتهم وأساليبهم ، وكانت القوى السياسية لا تزال تتمتع ببعض النفوذ ، وكانت الجماهير تطالب بالحرية والديمقراطية وكانت شديدة الحساسية تجاه قضية الدستور ، ذلك ان الدستور لم يسبق إلغاؤه الا في عهد لا يشعر المصريون تجاهه الا بالكراهية وهو عهد اسماعيل صدقي (عام ١٩٣٣)... وكان العمال الذين ترسبت في أعماقهم شكوك ومخاوف بعد أعدام خميس والبقري والذين كانوا يحاولون الاستمرار في اساليبهم الكفاحية التي اعتادوا عليها لفترة طويلة من الزمن مثل ممارسة العمل النقابي (بحرية نسبية) والأحزاب كسلاح للحصول على مطالبهم الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية... كان هؤلاء العمال يشعرون بالغربة والتباعد عن هذا النظام... وكان اليسار الذي منح كل التأييد للثورة قبل قيامها (بمساعدة الضباط الأحرار تنظيمياً وسياسياً وبطبع بياناتهم وتوزيعها) وبعد قيامها بحشد كل قواه لمساندتها في أيامها الأولى... كان هذا اليسار قد بدأ في التعرض لحملة إرهاب عنيفة لم يكن لها مبرر فعلي إلا الرغبة في تصفيته والخوف من نفوذه... كان قد بدأ هو أيضا يتشكك في جدوى تأييده لنظام كهذا...

ذلك كله ممتزجاً بتقارب واضح صريح مع أمريكا ، لا مجال للإفاضة فيه لأنه لا مجال لإنكاره او نفيه... أدى بطبيعة الحال الى نوع من العزلة...

وفجأة أحس هؤلاء الضباط الشبان ان الملايين التي لا أول لها ولا آخر والتي خرجت تؤيدهم وتساندهم منذ أقل من عام قد بدأت تتباعد عنهم...

وبدلا من العودة الى الجماهير فقد اختاروا خط إحكام قبضتهم على النظام... والتلويح بهذه القبضة في وجه الجميع .

وهكذا فاننا نسمح لانفسنا بأن نشير الى ان عملية «العسكرة» هذه تمت في الأساس كسبيل لمواجهة تباعد الجماهير وعدم رضاها وليس لتلافي هذا التباعد او إزالة اسبابه...

ومع تصاعد الصراع بين عبد الناصر ونجيب ، ولأن نجيب لم يكن يمتلك نفوذاً جدياً في صفوف الضباط ، ولأن عبد الناصر كان يرغب في تأكيد ولاء المؤسسة العسكرية له... ومع تصاعد المشكلات التي خيمت على المناخ السياسي بسحابات من العزلة والتشكك في النظام... ومع «النقطة الرابعة» وزيارة دلاس ونوري السعيد... الخ كانت عملية «العسكرة» تجري على قدم وساق...

تزايد نسبة الضباط في التركيب الوزاري

التاريخ	النسبة المئوية للضباط
يونيو ١٩٥٣	٢٦,٣ بالمئة
اكتوبر ١٩٥٣	٤٠,٩ بالمئة
ابريل ١٩٥٤	٤٥,٨ بالمئة
سبتمبر ١٩٥٤	٥٢,١ بالمئة

وهكذا وصلت عملية «العسكرة» الى أعلى قممها ، وبدون ما حاجة الى سرد تاريخ هذه الفترة ، فإن المتتبع لأحداثها يمكنه ان يلمح بغير ما شك مغزى كل زيادة في نسبة العسكريين ومغزى توقيتها... وانها كانت أحد المؤشرات الاساسية لتزايد عمليات الضغط على الجماهير والقوى السياسية... ولتصاعد عملية نفي الديمقراطية وحرية الرأي .

وفي عام ١٩٥٦ ومع انحسار موجة الضغط وتلاشي عزلة النظام الى حد كبير بفضل اتجاهه سياسة خارجية تقدمية (تحسن العلاقات مع الاتحاد

السوفييتي ـ مؤتمر باندونج ـ عدم الانحياز ـ رفض الأحلاف والهجوم الشديد على حلف بغداد ـ الهجوم العنيف على الاستعمار ـ الاعتراف بالصين الشعبية ـ صفقة السلاح... الخ) وبفضل انتهاج سياسة قاربت بين النظام والجماهير لم يعد ثمة مبرر لاستمرار هذه النسبة العالية من العسكريين في الوزارة وهكذا يشهد التشكيل الوزاري الجديد في يونيو ١٩٥٦ انخفاضاً حاداً في نسبة عدد العسكريين فتصل الى ٣٦,٣ بالمئة . لكن فترة الاسترخاء النسبي والحريات النسبية لم تلبث ان تلاشت وتجيء نهاية عام ١٩٥٨ بما شهدته من حملات مروعة ضد القوى الثورية واليسارية والتقدمية... وفتحت المعتقلات الشهيرة ابوابها لتضم ألوفاً من خيرة العناصر الثورية والتقدمية... وكان طبيعياً ان يعود النظام مرة أخرى ليتحصن خلف عناصره العسكرية . وتكون وزارة اكتوبر ١٩٥٨ هي المؤشر لهذا التغيير الحاد في السياسة التي ينهجها النظام ، إذ ترتفع فيها نسبة العسكريين الى ٤٨,٨ بالمئة ، ثم يستمر التصاعد في نسبة العسكريين مع استمرار نسبة التصاعد في الأزمة مع الجماهير ومع تعقد مشكلات الوحدة المصرية ـ السورية . ففي مارس ١٩٥٨ ترتفع نسب العسكريين في الوزارة المركزية الى ٦٠ بالمئة مسجلة بذلك رقماً قياسياً .

وفي أعقاب ضربة الانفصال ، ومع الاتجاه العام نحو التهدئة وتخفيف حدة التناقضات مع الجماهير ، ومع صدور سلسلة القرارات الثورية الشهيرة ـ التأميم ـ ٥٠ بالمئة للعمال والفلاحين ـ اشتراك العمال في مجالس الإدارة ـ ٨٠ بالمئة من مجالس إدارة الجمعيات التعاونية الزراعية لمن يمتلك خمسة أفدنة فأقل... تلك القرارات التي قفزت بعبد الناصر الى أعلى قمم جماهيريته... مع ذلك كله ، ومع انحسار طوق العزلة بشكل يكاد يكون تاماً عن النظام ،

لم تعد ثمة حاجة ملحة الى كل هذا العدد من العسكريين ، فتضاءلت نسبتهم في وزارة سبتمبر عام ١٩٦٢ ، الى ٣٦,٣ بالمئة...

لكن هذه النسبة ما لبثت مرة أخرى أن ارتفعت...

ثم تجيء النكسة بما حملته معها من تناقضات ومضاعفات ، وفي فبراير ١٩٦٨ تنفجر المظاهرات العمالية والطلابية منادية بتغيير جذري... ويصدر عبد الناصر بيان ٣٠ مارس ويجري تعديلا وزارياً تنعكس عليه بصورة واضحة آثار التحرك الجماهيري فتنخفض فيه نسبة العسكريين الى حد كبير .

مقارنة بين تركيب الوزارة القائمة في يونيو ١٩٦٧

والوزارة التي شكلت بعد فبراير ١٩٦٨

		العسكريون		المدنيون	
الوزارة	عدد الوزراء	عددهم	نسبتهم المئوية	عددهم	نسبتهم المئوية
يونيو ٩٦٧	٢٩	١٩	٦٥,٤ بالمئة	١٠	٣٤,٩ بالمئة
فبراير ٩٦٨	٣٣	١٣	٣٩,٤ بالمئة	٢٠	٦٠,٦ بالمئة

هل نحتاج بعد ذلك الى حديث طويل عن المغزى الذي تعكسه إمكانية استخدام نسبة العسكريين في الحكم كمؤشر لتطورات الأحداث في مصر ؟

لا أعتقد .

* * *

ومرة أخرى ولكي لا أدع مجالاً لأي لبس ـ فإنني لا أريد مطلقاً ان أتهم أحداً ـ وكذلك فانني أعتقد ان كون المرء ضابطاً أو ضابطاً سابقاً لا يعني بذاته مؤشراً فردياً يصلح تطبيقه على الحالة الجماعية ، ولا يعني ان قيامه

بوظيفة عامة أمر غير مطلوب ، بل إنني قلت ـ فيما سبق ـ وأكرر وأؤكد هنا أن كون المرء ضابطاً سابقاً من هذا الرعيل الذي أتحدث عنه قد يمنحه شرفاً عظيماً لو كان واحداً من هؤلاء الضباط الشجعان الذين صنعوا ثورة يوليو ١٩٥٢ . إنني أؤكد هنا احترامي التام للدور الذي قام به هذا الرعيل من الضباط السابقين ـ الذين خضعوا للتحليل في هذه الدراسة ـ وأؤكد ان دورهم كان إيجابياً بشكل عام...

لكن ذلك كله لا ينفي حقيقة موضوعية لا يعني إغفالها او تجاهلها إلا الانحراف عن الحقيقة والابتعاد عنها ، تلك الحقيقة الموضوعية هي أن تزايد نسبة العسكريين في أجهزة السلطة قد خلف آثاراً سلبية على علاقة النظام بالأجهزة السياسية والتشريعية والإدارية وعلى علاقته بالجماهير...

كما أن هذا التزايد في نسبتهم كان بذاته تعبيراً عن جوانب سلبية في هذه العلاقة بين النظام والجماهير . وهكذا وفي تفاعل جدلي... دخلت مصر الدوامة... تزايد الأزمة والعزلة يؤدي الى تزايد نسبة العسكريين وتزايد العسكريين يعني تزايد العزلة وتفاقم الأزمة...

ولم تكن ثمة فرصة للتخلص من هذه الدوامة إلا في فترات الانفراج النسبي حيث كانت مصر تتنفس بحرية نسبية ، وحيث كانت جماهيرها تستطيع ـ الى حد ما ـ أن تعبر عن إرادتها ـ بشكل نسبي...

ثلاث كلمات ختامية

الكلمة الأولى

لم يفت الوقت بعد...

هذه الكلمة أوجهها ـ في الأساس ـ الى القوى الناصرية التي لا زالت حتى الآن تستظل ـ وبالأخص ـ براية عبد الناصر ، وتستلهم منها خطوطاً لنضالها ، وآمالاً لمستقبلها... ولمستقبل الأمة العربية .

لم يفت الوقت بعد...

فلا يزال بإمكان «الناصرية» ، كفكرة ، كمنهج نضالي ، أن تلعب دوراً هاماً في حشد قوى عربية واسعة في النضال ضد الاستعمار والرجعية ، ومن أجل التقدم الاجتماعي .

لم يفت الوقت بعد...

فلا زالت هذه القوى تتمتع بقدر من الثورية والحماس يكفيها لكي تستمر في مواصلة المسيرة التي بدأها قائدها ، ولكي تسهم مع القوى الأخرى في المعركة الشرسة الدائرة الآن بين الأمة العربية كلها وأعدائها المتربصين بها... الامبرياليين ، والصهيونيين ، والرجعيين العرب .

مازال هناك دور يمكن أن تلعبه هذه القوى... وهو دور وطني وثوري وتقدمي... ومطلوب .

ولكن...

على هذه القوى أن تحذر من محاولات جرها الى اليمين... الى مواقع تخطاها الزمن ، وتخطاها عبد الناصر نفسه ـ بل ورفضها ـ منذ أمد طويل .

إن إحدى الميزات الاساسية في الناصرية كانت شعار عبد الناصر... «استمرار الثورة» .

«واستمرار الثورة» يعني ان يجدد الانسان الثوري نضاليته ، بمعنى ان يزداد ثورية...

لكن ثمة محاولات تبذل لجر الناصرية الى الوراء... وهنا تكون النهاية التي لا مفر منها... ذلك ان الجماهير التي آمنت بعبد الناصر آمنت به اساساً بسبب ثوريته وتقدميته ، والناصرية استطاعت ان تحقق ما حققته ، وان تكسب ما كسبته لأنها كانت عنصر تقدم وقوة دفع الى الأمام .

وبغير ذلك تصبح «الناصرية» أثراً من الماضي... كذلك فإنه على هذه القوى ان تحذر اخطار «المتاجرين» بالناصرية وان تكون دائماً قادرة على ان تفرز ما هو صحيح وما هو زائف ولن يكون ذلك بغير تحديد فكري واضح المعالم ، لما تريده الناصرية ، وما ترفضه... ولن يكون ذلك ـ أيضاً ـ بغير تحديد . مقاييس عملية ـ وطنية وثورية وتقدمية ـ لتحديد كل ما هو ناصري .

ولكن أيضاً...

على هذه القوى أن تحذر من أخطاء الماضي . ان إيمانها بعبد الناصر يعني الإيمان بكفاحه الثوري والتقدمي ، ويعني أيضاً ـ وفي المقام الأول تجنب أخطائه...

ولكن ثالثاً...

على هذه القوى أن تحذر الخطأ القاتل الذي طالما ترددت فيه ، وهي مطالبتها الجميع بأن ينضووا تحت لوائها ، وإلا حكمت عليهم بفقدان ثوريتهم... فذلك خطأ ، لأنه تجاهل للواقع ، وتجاهل للحقيقة .

أنتم لستم الثوريين الوحيدين...

أنتم مجرد فرقة من الفرق الثورية العربية... واحدة من الفرق وليس كل الفرق...

وبقدر استطاعتكم إدراك هذه الحقيقة ، بقدر ما تستطيعون بنجاح تقدير الدور التاريخي المنوط بكم... والقيام به فعلاً...

لا أحد يطالبكم بالتخلي عن مبادئكم ، لأنه ليس من حق أحد أن يطالبكم بذلك . كذلك فإنه ليس من حقكم أن تطلبوا الى أحد أن يتخلى عن مبادئه حتى ولو كانت خاطئة... ـ من وجهة نظركم ـ .

وأنا لا أطلب منكم مجرد التسامح مع الثوريين الآخرين ، ولا التساهل في قبول الجلوس اليهم أو التعاون معهم ، فأنا أعرف أنكم تفعلون ذلك أحياناً... لكنني أريد إيماناً عميقاً بأن من حق الآخرين أن يوجدوا ، تماماً... مثل حقكم أنتم في الوجود...

ليس أكثر ... وليس أقل .

... هل تسمحون لي بهذه الكلمة... ؟

الكلمة الثانية

نعم ... أنا الذي يستطيع

هل أجرؤ فأقولها...

فما أباس أن يقول الإنسان «أنا» .

لكنني لا أعني بها شخصي ، ولا حتى شخصاً محدداً بذاته ، وإنما أي إنسان ينتمي الى تلك الجماعة من الناس... ذلك الجيل من المصريين الذي أعتبر نفسي واحدا منه ، والذي ما كنت لأكون لولا التحامي به .

أزعم أنني ـ بمعنى ـ أننا... نحن هذا الجيل من الناس الذين قدرنا عبد الناصر بطلاً وطنياً وتقدمياً... قدرناه أسمى ما يكون التقدير ، وانتقدناه بشرف وشجاعة حتى وهو في قمة مجده ، انتقدناه عندما أخطأ ـ وكل إنسان يخطىء ـ لكن ما أقل الذين تجرأوا وقالوا له ذلك .

لكننا قلناها ، لأن الأمور كانت تمس مصير شعب ، والقضايا محل الصراع كانت تشكل مستقبل الوطن...

كثيراً ما قلنا له نعم ، قلناها من قلوبنا وعقولنا...

وأحياناً قلنا له لا ، قلناها من هذه القلوب والعقول نفسها .

وهكذا فان واحداً من هؤلاء الذين امتلكوا الجرأة ـ في الأيام الأولى ـ ليقول له نعم... أقول امتلكوا الجرأة لأن التيار العام الساحق في أوساط عديدة كان يقول لا...

... واحداً من هؤلاء الذين امتلكوا الجرأة بعد ذلك ليقولوا لا... عندما تطلبت مصلحة الشعب ذلك...

واحداً من هؤلاء... وليس غيرهم هو الذي يستطيع أن يكتب هذه الكلمات ، ويجرؤ على أن يقدم مثل هذا التحليل للناصرية...

واحداً من هؤلاء الذين خاضوا مع الناصرية أعقد تجربة وأشجع تجربة... وربما أبشع تجربة...

أن يقف الإنسان «السياسي» ليقول إني أؤيد سجاني... معذبي... قاتلي...

ان يسمو الانسان فوق كل المشاعر ، ان يتحدى كل ما في أعماقه من نوازع ذاتية... ان يقهر ذاته كما يفعل الصوفيون ، ويهزأ بآلامه ويغفرها... ليستمر في موقف يعتقد أنه صحيح...

بعد ذلك يمكنه ان يقول كلمة صدق...

واحداً من هؤلاء... وليس غيرهم .

ليس هؤلاء الذين صاغوا من عذابات السجون والإرهاب شعارات سوداء حاولوا أن يلطخوا بها وجه الناصرية... الذين كانوا فريسة لأحزانهم وآلامهم الشخصية ، وأدانوا كل شيء . حتى أجمل الأشياء ، وصوروا الناصرية شبحاً أسود لا يمكن أن يشرق عليه يوم سعيد... ثم إذا بهم بعد ذلك ينقلبون الى النقيض .

وليس هؤلاء ، الذين تهالكوا تحت أقدام الحكام ، فلم تعرف شفاههم غير كلمات التملق والرياء بينما قلوبهم تحقد وتكره... هؤلاء الذين جعلوا من ريائهم سلماً رخيصاً ، والذين صفقوا لكل شيء تصفيقاً تتحرك به أيديهم ولا يصل الى قلوبهم ولا حتى آذانهم...

واحداً من هؤلاء أو أولئك ، لا يملك أن يقول كلمة صدق في الناصرية...

لست أصادر حق أحد في الكلام...

لكنني فقط ، أريد للانسان ، إن كان يريد أن يتكلم بصدق أن يبدأ بالكلام عن نفسه...

ولهذا فقط... وجدت الجرأة... كي أخوض هذه التجربة .

حذار...

هل يملك الكاتب أن يحذر قارئه... ؟

ذلك هو السؤال الذي حيرني طويلاً... وأنا أخط كلمات هذا الكتاب... فلقد قلت منذ البداية ان الموضوع معقد ، أقصد انه مركب ، بمعنى انه يستحيل ان يقول الإنسان فيه كلمة واحدة «نعم» أو «لا» . «أبيض» أو «أسود» .

لقد علمتنا الجدلية ألا نقول ذلك لأي شيء ، فلا حقائق مطلقة... والنقيض موجود في كل ذات...

لكن صورة الناصرية تبدو أكثر تعقيداً من ذلك بكثير...

ومن ثم فقد كان من الضروري الالتفاف حول الموضوع والنظر اليه من أكثر من زاوية ومن أكثر من موقع .

وهكذا فإن ما أتوجه به من رجاء الى القارىء ـ سواء اتفق معي في بعض ما قلت أم لا ـ هو ألا يجتزىء موقفاً دون آخر... عبارة دون أخرى ، ألا ينتزع سطوراً بعينها هي بطبيعتها جزء من الصورة وليست الصورة كلها بأي حال من الأحوال... ولقد حرصت على أن أقول في بعض المواقف رأياً مفصلاً ،

فيه الإيجابيات والسلبيات معاً... وتكون الخطيئة ـ في نظري ـ أن يحاول احد أن يجتزىء لمحة إيجابية او سلبية ليعزلها عن بقية الكلام معلناً أنها موقفي .

رأيي هو هذا الذي كتبت... كله... بكل حرف فيه ، وليس ناقصاً أي كلمة منه...

رأيي ليس أحادي الجانب ، إن فيه نعم ، وفيه لا ، ممتزجتين معاً ، في ترابط جدلي ، بحيث لا يمكن ـ حتى ولو بمشرط الجراح ـ فصل إحداهما عن الأخرى .

وأية محاولة لهذا الفصل... تكون نتيجتها شيئاً غير الذي أردت .

الفهرس

تأملات.. في الناصرية

هذا الكتاب للمفكر التقدمي المصري المعروف د. رفعت السعيد يحاول من خلال تحليل الناصرية والتكوين الاجتماعي لحركة الضباط الأحرار ولموقف ثورة ٢٣ يوليو من الديمقراطية ومن الصراع الطبقي ومن القومية العربية، يحاول أن يجيب على سؤال جوهري : لماذا وجد اليسار المصري نفسه ملزماً بتأييد نظام أنزل به اضطهاداً لا محدوداً ؟ ولماذا اكتسب هذا النظام، بالرغم من ذلك الاضطهاد، طابعاً تقدمياً متزايد الجذرية ؟



ISBN => 2-84305-244-0
EAN => 9782843052446